سليم بركات

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

البازيار

شعر

مدونة ابو عبدو

دار توبقال للنشر

البازيار

سليم بركات

البازيار

شعر

دار توبقال للنشر
عمارة معهد التسيير التطبيقي. ساحة محطة القطار
بلفدير. الدار البيضاء 05 ـ المغرب
الهاتف : 24.06.05/42

تـم نشـر هذا الكتـاب ضمـن سلسلة
نـصـوص أدبيـة

الطبعة الأولى، 1991

رقم الإيداع القانوني 759 / 1991

أسْرَى يَتَقَاسَمُونَ الكُنُوز

شامتةً تقتحم الحياةُ بخزّافيها الـمشهدَ،

فلأنهـضْ، لا ليؤْنِسنـي الذي أراه، بـل لأُخْفِـيَ عـن الحياةِ حنينـيَ الـمكسور.

ولأَكْتُمنَّ أنيني، فالكلُّ على حالهِ:

الجبـلُ الغارقُ خلـف البيـت ذي القرميـد، والأطفـالُ الصاخبـون، كبراعمَ ميتةٍ، أمام سياج الجيـرانِ، والـمنزلُ الذي هجَرَهُ نزلاؤه، عابسيْـن، شمال حـديقتي، والـزيزانُ الــمتباهيةُ بجدالِهـا الـملكيّ، والفِــناءُ العشبيُّ الذي ينقضُّ السنـونو على نوافيـرِهِ، وفسائلُ الجِيرَانْيُومِ الــمروَّضةُ، وأعمدةُ الإسمنت التي تعلو، يوماً بعد يوم، في فراغٍ مُقْتَطَفٍ من ثراءِ الفراغات.

هكذا، الـمشهدُ على حالهِ،

والحقيقةُ على حالها:

عِراكُ مراهقيْـن في طبقةٍ مّا من المبنى، وصراخُ أَبويْهما.

عِراكُ ملائكَةٍ منذ أزلٍ، وصراخُ جذورٍ في الظلام.

فَلأنهـضْ، إذاً، من الـرُّقاد النَّسّـاجِ، لا ليُؤْنِسَنِـي الذي أراهُ، بـل لأُؤْنِسَ الـذي أراهُ من الـمشهدِ، وأُكْملَ الحنيـنَ بغواياتٍ تُرْوَى. وبـالقُبَلِ ذاتها، التي اقتنصَـتِ الشفاهَ طويلاً، فـلأمتدح الخسارةَ الـمُكْتَنِزَةَ كجَـاريةٍ مُكْتَنِزَةٍ، مردِّداً بفَم الغُبارِ ما يتَمْتِمُه الغيبُ:

إنها القطيعةُ بين الأرضِ والريحْ.

لَأنْكُثَنَّ بوعدي إذاً،

فالشفاهُ التي تردّد الكمالَ الصّـاخبَ تردّدُ الـموتَ، والـموفَدُون إلى هذا الليلِ ليبنُوا أدراجَهُ اللولبيَّةَ يبعثرونَ الرخامَ الذي حمَلوه.

أما الـمشهدُ الـمُقَامُ على أنقاضِ حالِهِ فهو على حالهِ،

والحيلةُ على حالِها،

والـموتُ، وَحْدَهُ، الأكثرُ وِحْدَةً بين الأَسْرَى.

لكنْ، ما الذي يفعلُهُ الـموتُ هنا؟

ما الـذي يفعلُهُ الــموتُ السكرانُ، ذو الـدُّوارِ الأَشدِّ، وهـو يرمـي بثيابهِ إلى الأرواح؟

مَا الـذي يفعله الـموتُ، الـمُسَطِّرُ بـأقلامـهِ على الفكـاهةِ النـائمةِ كورقةٍ مديدةٍ بين شِعْرٍ نائمٍ وأنينٍ يقظان؟

مَا الـذي يفعله الـموتُ، شريكـي، في هـذه البُرْهَـةِ التي تَتَـأَصَّل بجـذورٍ كجذُورِ التيـنِ، وبـراعـمَ من شعـاعٍ ينثـرُ الـمغيبَ على أثـداءِ شقيقاتهِ؟

مَا الذي يفعلهُ الـموتُ، القادمُ بي إلى هَذْرِهْ؟

مَا الـذي يفعله الـموتُ الذي أضجَـرَ الشهودَ بِهَـرْجِهِ، وخـرجَ مع الخارجين من الباب ذاتِه الذي يُفْضي إِلَى الحياة؟

مَا الـذي أفعلُه بالـموتِ، أسيري، وأنا الحـائرُ في تـدبيرِ زنـازينَ مضيئةٍ تليق بأسْرَايَ وبِـي؟

فلْتتمهَّلِ الحقيقةُ في اقترابها من القيدِ الذي أشدُّ به رُسْغي إلى رُسْغِ الرِّيحْ.

أما الـمشهدُ فليبقَ على فراغهِ،

لأنني سأستعْجلُ في إبرامِ العَقْدِ ذاكَ، الذي يقدِّمُ الهواءَ غريقاً إلى زَبَدي، وسأعلِّمُ نفسي مشافهاتِها الكبيرةَ بلسانٍ مقطوعٍ، فالأمرُ كلُّه برهةٌ في يقينٍ مُنْكبٍّ على الرُّتوقِ كإسكافيّ.

وسأبوحُ بي للأرَقِ الذي يبوحُ بِقَدَرِه للْمِياهِ،

وستبوحُ الـمياهُ بي للسّكُون الجالِسِ، حافياً، أمام مُريديه.

وسأقسّمُ الهبـاتِ، التي رفعها الحريـقُ إليَّ، بين اليقينِ والفكـاهةِ؛
سأتقاسمُ والبرْدَ الضاحكَ شتاءنا اللّهبــي.

(«شقيقي أيها اللّهبُ؛
شقيقي أيها الخداعُ؛
أيها الـموتُ الذي من مياهٍ؛
ياشقيقاتــي اللاّئي يوقدْنَ في الجـذور صَخَباً رشيقاً كالسّنـاجبِ، ما
حيلتي في هذا؟:
العبثُ يُرَاهِنُ بالله حين نحجبُ عنه هِبَاتِنا»).

والــمشهدُ؟ أيُّ حالٍ لِلْمشْهَـدِ، أيُّ كُوًى يطـلُّ منها الخـالدُ علـى
خلودِهِ؟
يقول جاري: «تمهّلْ».
تقول الحديقةُ: «تمهّلْ».
يقولُ الــمكانُ إسرافَهُ، ويضلِّـلُ الزّنبقُ الـوردَ، كأنَّما العبـثُ يغْزِلُ
بِنَوْلٍ من الـماسِ مَغِيْباً حيّاً كعضَلَةٍ في فخذِ الكلب.
وآخرون يقُولون، أيضاً، قولَهم الـمُمْتَهَنَ، فاصْغِ:
إنها مُهْلَةُ القويِّ ينذرُ الأرحامَ؛
إنها مُهْلَةُ الجاهلِ كي تسوِّيَ الحروفُ إشكالَهَا.
فليعْذُرنــي المشهدُ، إذاً، لأنّنـي سأنجـو منّي قبـلَ اكتمالِ الطبـائعِ

التي تنسجُ الأَلَم بخيوطٍ من ثرثرةِ العِنَبِ، عائداً بنُموري إلى القيامةِ، من الرّواق ذاته الـذي ترتطمُ فيه مـوازينُ باعةِ البُنـدقِ بالملائكةِ المتشـاقلةِ في عبورها.

ولـربما عـذرتُ الـمشهدَ، بِـدَوْري، على ثبـاتـهِ الأَخْـرَقِ ببيوتـهِ؛ بشجراتـهِ؛ بريـاحهِ الهيِّـنَةِ؛ بخزّانـاتِ الـمياهِ الـمنصوبةِ على الأَسطحـةِ كفُرُوْجٍ تقنـصُ الشمسَ؛ بصياحِ الديكـةِ الـمختبئةِ خلفَ سياجـاتٍ من اللُّوبْيَاء؛ بمصابيحهِ الـمضيئةِ؛ بالقَدَرِ الـمُراهِنِ على فكاهاتِهِ البارِدَةِ.

رُبّما،

رُبّما،

ـ «تُصبِحونَ على خيرٍ».

ـ «تُصبِحونَ على أَلَقٍ».

ـ «تُصْبِحُونَ على عَدَمٍ مُدْرَجٍ في قائمةِ الطعام».

«يا لَرُوْحي المغلوبةِ على أُمومتِهَا»:

هذا مَا أقولهُ، وأنا أغادركم من الباب الخلفيِّ الـمُفْضي إلى الحياة.

لكنّ أسْرَايَ يبقونَ هناك، في انتظارِ أن أحرِّرَ الأَزَلَ من الحُمَّى.

وأسْرَايَ مِلْكُ مشاغِلهم، يدبِّرونَ لي عذوبةَ الـمُضيِّ بالخسارةِ إلى أَلَقِها. مُبَاهيْـنَ بسُفنٍ ليست لهم يبسطـونَ على الأرض أشرِعةً مـن خيالِ الـماء، متموِّجةً، كأنما تَلِدُ الظلالُ نَسْلاً من الحبالِ الـمشدودةِ إلى كَوْثَلِ الفجيعة.

هكَذا إلَى ألَقِها؛
هكذا الخسارةُ إلَى ألَقِها،
بأسْرَى يتقاذفُونَ الفجرَ كالوسائدِ،
ويتأمَّلون الفردوسَ المذعورَ متشبّثاً بستارةِ المسْرح.

ـ «فَلْنَكُنْ فَكِهيْنَ. فلنكُنْ جراءةَ القطيعةِ تؤلِّبُ النّعمةَ على بناتِها».
ـ «فلأكُنْ وسيطاً».
ـ «فليكُنِ المنتصرونَ حيلةً تُشْغِلُ الرَّحِمَ بسباقٍ آخر»:
هَذا مَا أقوله، وأنا أغادركُم من البابِ الخلفيِّ المفضي إلى الحياة،
لكن أسرايَ ينتظرون أن أحرِّرَ الياقوتَ، وأختبىء في أمومةِ المرائي.
وأنا خَجِلٌ من أسرايَ كَيْفَ لا أقودُهمْ بي إلى كَيْدِ الشَّكْلِ وكنوزِهِ.
وأنا خَجِلٌ من الموتِ كيف لا أُعيدُ اليه أَقْدامَ الهربِ القويةَّ، ولا أحسبُ في ثرواته الموْتَى، لأنهم يقودون بي كَيْدَ الشَّكْلِ، ويأتمرون على غدِهمْ!
وأنا خَجِلٌ من العَدَمِ يقلِّدُني المكانَ فأنسى.

يالَنسياني، إذاً:

أَسْرَايَ يدفعونَ عَجَلَةَ الحظُوظِ الكبيرةَ صوبَ السورِ الكبير.

لاَ لُهاثَ. لا أختامَ على التُّرْقُواتِ. لا نُسورَ تحوِّمُ مشتمَّةً طَقْطقاتِ العظام. مؤتلقينَ بالذي فيهم من صيحةِ الرمادِ الحيِّ يدفعون العَجَلَةَ فتندفعُ حَذْراً إلى الصميمِ المفتوحِ للنهايةِ التي لا تكون.

يالَنسياني، إذاً:

عَجَلَةٌ و أسْرَى.

عَجَلَةٌ وأسْرَى كُثُرٌ ـ أسْرَايَ، تلكَ النظائرُ التي تمتحنُ الفروقَ بشهوةِ النهايةِ التي لاَ تكُون.

يالَنسياني، إذاً:

حَرْبَةٌ من ريحٍ، وقُلُوعٌ من العافيةِ؛

ذكرى شهورٍ تحت الخمائرِ،

وأزيزُ طلْقاتٍ تفتحُ الحكمةَ على مِصْراعيْهَا.

.. ونسيانٌ. تَهَتُّكٌ في النسيانِ. نسيانٌ حَرِدٌ. نسيانٌ كبناتِ عُرْس. نسيانٌ يسترُ بيديِّ اللهِ رُعَافَهُ القويَّ. نسيانٌ محرِّضٌ يدلق الزيتَ على الأدراجِ، ويكلِّم الشهودَ بلسانِ الفلكيِّ الذي يحصرُ المتاهَ بفُرْجَارِهِ.

ذِلكُمْ أسْرَايَ، وذاك نسْيَانُهمْ،

فلأتَّفِقْ، إذاً، عليَّ، لأخطوَ خُطواتِي على هيئةِ تحيرُ الريحَ، ولتتَّفقِ

القيودُ على عَـرْضِ طبائِعها، حتى لا أُدْرِجَ النهارَ في صُنـوفي، ولا أتَّخِذَ البهيَّ قـريناً، مُمتَحنـاً أسْرَايَ فـي أشكالهـم ذاتِها، التـي تجتاح بكثيفهـا الـمُشْكِلِ ذلكَ النشيدَ الذي ينسبهُ الأَقوياءُ إلى الآلهة.
فليتَّفِقْ أسْرَايَ على زنازينَ مضيئةٍ تليقُ بي.

وفي اتجاهي ـــ اتجاهِ الـمشيئةِ الـمتعثّرَةِ بثيابها الطويلـةِ ــ فلْينفُخِ القـادرونَ أبواقَهـم مـن السورِ الأعلـى بَيْنَ الأَسْـوَارِ، حتـى يختلطَ القَـدَرُ بقُرّاَصِهِ وحراذينِهِ. وفي غربالٍ واحدٍ فلْتتجاورِ الحماقةُ والغدُ، مُنْتَثِرَيْنِ من الثقوبِ الكبيرةِ على الفراغِ كالطَّحين.

في اتجاهي،
في اتجاااااهي أيها الخفيُّ،
في اتجاهي أيتُها الجِهَاتُ،
عميقاً،
قربَ الفضيحةِ الناعسةِ في فرائها،
هُنَا،
حيثُ يخمّنُ الطبَّالونَ مراتبَ الصوتِ،
وتتناحرُ الأمومةُ بسكاكينَ من دُعابةِ الذَّكر.

في اتجاهي؛
في اتجاهِ ذلك كلِّه يدحرجُ أسرايَ مكاييلَهم.

والـمشهدُ على حالهِ:

فتورٌ يمدُّ الجِبالَ لبهْلَواناتهِ. قنَّاصَةٌ من الوردِ على الشُرفات. أنبياءُ قربَ سور «سباق الخيل» يحذّرون الشجرَ العالي. سنُونُو يروِّض أسلاكَ الكهرباء العاليةَ. صوتُ الـمغسلة ذاتِها من وراء نافذةِ البيتِ الغربيِّ، ونَحْنحاتُ الـمتامرينَ وهم يسدلون الستارةَ، ليلاً، بين ربحٍ وآخر. والـمساءُ الذي يدلُّ عليَّ جيادَه، كأنني السَّهَرُ يفتحُ الخانَ الأوسَعَ للمؤرَّقينَ بحمَّى يقينِهم.

هكذا، الكلُّ على حالهِ:

الـمجدُ الـمُبتهلُ إلى قيافِهِ الكسولِ؛ والقهقهةُ؛ والصيفُ؛ والجصُّ الـمتجمِّدُ على مدخنةِ بيت الجارةِ العانسِ؛ وزهراتُ الـميموزا؛ والغبارُ المحرِّضُ إذ يلقِّنَ الظهيرةَ أنينَها؛ والتعبُ؛ والطلالُ؛ والـمجادلةُ الـمحبوكةُ كعَظْمٍ؛ والهمسُ؛ والدغدغاتُ؛ والبدعةُ التي تُطقطقُ كمقصِّ الحلاّقِ؛ والسِّحرُ؛ وانْشِداهُ الحادثةِ بوقوعِها؛ والقيامةُ؛ والنفيرُ الأبعدُ الذي يلي كلَّ شيءٍ؛ والفتْنَةُ الدائرةُ بخواتمها على أناملِ الـموتى.

فليتَّفقْ أسرايَ، إذاً، على سلامٍ مّا.
فلأتَّفق مع الـمكانِ على زنازينَ تليق بأشباحِنا.

وفي اتجاهي ــ اتجاهِ الثُّغورِ التي ينفـذُ منها الحاضرُ إلى شهواتِهِ ــ فَلْتتسلَّق الأبـوةُ سورَ النعمةِ بلُبلابِهَـا، مُوْمِئةً لـلأشدِّ دهاء؟ للدَّهـاءِ ذاته؛ للأسلحةِ التي ستوقظُ الأَرضَ من رُقادنا بعد حِينْ.

في اتجاهي:
أُبوةٌ في اتجاهي.
عطَّارون يدلقونَ قُفَفَ الحشائِش،
ودُعْرٌ ينخُر الأبدَ فيهْوِي؛

هَكَذا: الكلُّ يهْوي فـي اتجاهي، مظلَّةً من هُلامٍ كقنـاديلِ البحرِ، وأنا أتلقَّفُ مَن أتلقَّفُهُ بأيدي السعاةِ أو بشبَاك الحمْقَى.

وأتقـدَّمُ بي أسيـراً أسيراً أتمهَّلُهـم، فيتمهَّلونني ـ كمثلـي ـ بنـداءٍ شفيـفٍ، وهم يَعُـدُّونَ القضبـانَ التـي يحملونهـا إلـى بـواباتِ سجـونهـم الرحيمةِ، هناك، واثقينَ من الآَلمِ الذي سيدخلُ الرّدهةَ بقطيعهِ، خفيفاً، يُتَمْتِمُ بكلامٍ ككلامِ الـمَمْلُوكْ.

والآَلَمُ، بعد هذا، على حالهِ:
مُـدَاهِنٌ يـرسمُ الحـديدَ علـى صُـورَتِهِ، ويكمِّـم الأَرضَ فلا تطلـقُ الصيحةَ التي ينتظرها العارِفُون.
والآَلمُ رئةٌ، بعد هذا، أيضاً،
واتِّفاقُ شهودٍ،
وقرائنُ بها يحسمُ المرافعونَ عن اليقينِ جِدالَهم.

والأَلَمُ. . . آهِ أسْرَايَ:
سيَنْكُثُ الغدُ بوَعْدِه.
ستَنْكُثُ البيوتُ بوعْدِها.
ستَنْكُثُ الطرقُ، والحدائقُ، بوعُودِهَا.
ستَنْكُث المدَاخلُ، والمتاهاتُ، بوعُودِهَا.
ستَنْكُثُ الروحُ بوعْدِهَا.
ستَنْكُثُ الريحُ بوعْدِهَا.
ستَنْكُثُ القيامةُ بوعْدِهَا.
ستَنْكُثُ الثمرةُ، التي لم تلْتَئِمْ، بوعْدِهَا.
ستَنْكُثُ الجَسارةُ بوعْدِهَا.
ستَنْكُثُ الحيْلةُ بوعْدِهَا.
ستَنكثُ الحَياااااةُ بوعْدِهَا،
وسأنكُثُ بوعْدِي، متقدِّماً أسْرَايَ إلى الفضيحة.

بَيْدَ سَتَبْقَى الحظوظُ على حالها، معتكفةً بالمناقيرِ الذَّهبيةِ على الغبار،
وسيبقى الغيبُ مُسترسلاً، كصيْدَليٍّ، في دَحْضِ عقاقيرِه.
فمَنْ سيرتأي، مثلي، مشيئةً تأخذُ الحيَّ على مَحْمَلِ الحيِّ،
والفكاهةَ على محْمَلِ الأبَدِ؟

من سينقذُ اليقينَ من جَمَالِهِ؟

إنها القطيعةُ؛
إنها القطيعةُ،
وأسْرَايَ يسْتكمِلُونَ الفروقَ التي تعمِّمُ مجُونَها.

فلْيأسِرْني من يريدُ، إذاً؛
فليأسرني بِشبَاكٍ أو بِغَدٍ يُموِّهِ الشِّبَاكَ؛
بأنينٍ عالٍ، وسَكينةٍ كالحبرِ؛
برجفةٍ في اليديْنِ تدلقُ الحبرَ على الهَواءِ.

فلْيمتحِنْني أسْرَايَ بأنينيَ العالي؛
فلْيمتحِنْني قلبي كأسيرٍ لأمتحِنَ قلبيَ بفكاهاتهِ الشَّاردةِ. ولْيتواطأْ أسْرَايَ معي على قَوْلٍ فكِهٍ، فلربَّما قَهْقَهَ الجَمالُ مثلنا من الأرض تمزِّقُ قُمْصَانَها، خارجَ الزنازين هذهِ، وهي تبعثُ برُسُلِها إلى الحريقِ فيرجعون ضاحكيْن.

ما همَّ:
بأقلامٍ كبيرةٍ، أو بمياهٍ،
بذهبٍ أو بقُضاةٍ،

بشهـودٍ مذعـورينْ، أو بنـرجسٍ مـذعـورٍ، ستمتحنُ الـريحُ أيضـاً شُكوكها:

والحيـاةُ ستمتحنُ شكـوكَهـا وهي تـدخـلُ، مُحْتشِمَـةً، من البـابِ الخلفيِّ الذي يفْضي إلَى شُكوكي.

هكذا: الكلُّ على حالهِ:

القطيعةُ وامتحانُها،

الـمشهدُ واللهُ.

هكذاااا،

عميقاً،

حيث الـمُعْضِلَةُ الـمفتونَةُ بأبدٍ يتسلَّق بوأَبتَنا الـمُغْلَقة.

والبيتُ؟

بيتُنا. يـا لَلْبيتِ؛ يـا لَلأُفقِ الغـربيِّ؛ يالَلْغـدِ الضجرانِ؛ يـا لَلْسَّهرِ الـمُمْتَحَنِ بـالسّهارى؛ يا لَلْمشيئـةِ؛ ياللرُّمَّـانِ الـمعلَّقِ أربعةَ شهـورٍ على الشجرات ذاتهـا؛ يالَـديكَةِ الظهيـرةِ؛ يالَلْـزائرينْ بـأبواقهـم يقبضونَ علـى النحاسِ الـمنثورِ في الهواءِ؛ يا لَنَهْبٍ يُبيْحهُ العَادِلُون.

عَاااادِلُونَ؛

كلُّهم عَادِلُون:

اسألوا أسْرَاي وهمْ يتصيَّدون الليلَ بشُصُوْصِ الألمِ الكبيرة.

. . . وكبيرةً فلْتكنِ المحنةُ بريشِها وزبيبِها، متدلّيةً من الخاتمةِ كإجاصٍ تتَنَاهَبُهُ العصافيرُ.

كبيرةً لِتكُنِ المعاتباتُ بعد العِنَاق،

فالكلُّ على حالِهِ:

البطولةُ التي تنتظر من يحدِّثُها حديثَ اليقظانِ، والدقائقُ الأَربعون بين المدينةِ ومطارها الهاربِ، والخبرُ الكبيرُ إذْ يوسِّعُ القَلَقَ لخَبَرٍ كبيرٍ، والصيفُ الذي يتسوَّل الشتاءَ المتسوِّلَ، والزيارةُ المُحْتَمَلَةُ لمَلاَكٍ مَّا، والمائدةُ بقوائمها الأَرْبَعِ، خلفَ ستارةِ القِشِّ الفاصلةِ بين هواءِ الرصيفِ وهواءِ الرصيفِ، حيثُ ندحرجُ شهواتِنا ككَهنةٍ ينعمون بِحَرَجِ اللهِ من أعماقٍ لا تتَّسعُ لامتحانه، وقد أسْلَمنا أهدابَنا للمشْهَدِ، وأسْلَمنا مواعيدَنا كفُستُقٍ تَتَذَرْذَرُ قشورهُ على المائدة.

هكذا:

لا يقينَ،

لا جسارةَ،

لا خزَّافينَ،

لا قلبَ يُلْقي بظلالِهِ على الفكاهةِ،

لا هبوبٌ، بل نفخٌ من فمِ الظلام.

هكذا:
هَذْرٌ خافتٌ،
وقبضةٌ تتكوَّر لتهْوِي.

هَكَذاااا:
خيانةٌ تتلمَّس ــ كورقةِ الدَّلْبِ ــ غُصنهَا الـمائل.

ووسطَ هذا كلِّـهِ حَزَنْبَلٌ، وعرانيسُ ذرةٍ، وقفزٌ كقَفْـزِ الكُنْغُرِ، وطُهاةٌ أيضـاً، ونعيـمٌ منهـوبٌ، وحُلـيٌّ، وقيـاثِرُ، وقنـاديـلُ بحـرٍ بهـلامٍ أنقـى، ومجذِّفـون بمجاذيفَ مـن عظامٍ، ولواحِـمُ،وقرَّافاتٌ، وحجـارةٌ للجَلْخِ، وسروجٌ، ومـوائدُ مموهةٌ بشرابٍ ممـوَّهٍ، وأكبادٌ، وزيزانٌ ضليعةٌ كـالظهيرةِ في اقتسامِ الجهاتِ، وبنادقُ، ووراَّقونَ، وَعَدمٌ قيَّافٌ؛
وسطَ هذا أنينٌ يحنو على القَهْقَهة.

والغدُ على حالهِ:
فناراتٌ غارقةٌ، وملوكٌ موعُودُونَ بشعوبٍ أقلَّ ضجراً.

فليعْذُرني أسْرَايَ : مـا مِنْ راوٍ يبْعِدُ الحكايةَ عن زنـازينهم، لينْعَمُوا بالأكيدِ الـمفتوحِ على قرائنهِ العمياء.
مَا مِنْ راااااوٍ..

مَا مِنْ فضيحةٍ وسطَ هذا الـموتِ تُلْهِمُ الـموتَ فكاهاتهِ؛
مَا مِنْ أحشاءَ لتتقطَّعَ؛
مَا مِنْ كَبِدٍ:
إنها الأنفـاسُ الكبيرةُ فـي رئةٍ لم تشهـقْ قطُّ، وَوسَـاوِسُ مِنْ ريـشٍ يتَّكِـىءُ عليها الـمنفيُّون.

فلْيعذُرني أسْرَايَ عُذْرَ الـمُقْتَدِرِ كي أهيِّـىء الزنازينَ العادلةَ والهواءَ العادلَ، بشفاعةِ الـمديحِ الذي يتوكَّأ عليه الـموتُ. وليهدإِ الهائمونَ حول مسائي، فمَعِي الفِدْيَةُ الكبيرةُ التي مـن شِبَاكٍ ومزاليجَ. ولا يتتبَّعنّني الغدُ، فالـرهائنُ الخارجـةُ بي — مـن الباب الخلفيِّ الـذي يفضي إلى الحيـاةِ — خجولةٌ، والحياةُ خجولةٌ وراء الباب الخلفيِّ الغارقِ في لَغَطِ الـمنفيِّين.

هَكَذا،
مموَّهاً كَقَسَمٍ يكتملُ العاديُّ.
هَكَذا،
تسهرُ المعجزةُ قربَ الحريقِ الذي يُضرِمُهُ العاديّون.
هَكَذا،
إلَهِي،
أدلُّ عليَّ مغاليْقَكَ التي لا تنتْهِي،
وأنا أوهمُ أسرايَ أنَّ لي شكيمةَ النرجسِ وسطوةَ العَبَيْثَرانِ،

وأتذرَّعُ بكَ كي أُقوِّلَ النعمةَ ما لن يقولَهُ الـموتُ.

وأسْرَايَ؟

ما الذي يُشغلُ الكنوزَ بأسْرَايَ؟

سأقولُ لنفْسِي اخْتَرِ الـمشهدَ الذي علَى حَالِهِ،

فالـذين يُوقظـونني في الأَحدِ الـميِّتِ، في الخميسِ الـميِّتِ، في السبتِ الـميّت، في الثلثاءِ، في البدايـةِ الـميّتةِ والنهايةِ الـميّتةِ، يبْتسِمُون محيِّيْنَ مـن شرفةِ البنـاءِ الذي لم يكتمـلْ سقفُهُ القـرميدُ؛ البناءِ الفـاجرِ، الـمحتجزِ الهواءَ بخصيتَيْهِ الغبراوَيْن.

هكذا، يوقظونني بأَنَفَةٍ كأنني سأشهدُ القطيعةَ التي يؤجِّجونهَا.

هَكَذا، كأنَّ الذي يمزِّقُ قلبي يمزِّق الحدائقَ أيضاً.

لكنّنِي يقظانُ في المدى الذي توقظُ الآلهةُ فيه ما يُغيظُها؛

يقظانُ، مُمْتَنٌّ لفِتنةِ الأقوى؛

يقظانُ كَدَهاءِ الـمشهدِ الـمحمولِ على جِناسٍ كبير.

وثمتَ، هناكَ، كمائنُ في الأَلَقِ، كمائنُ كمثلي، حيث أرتجلُ الغدَ ذا العربةِ الصلصاليـةِ، مغامراً بالنَّثْرِ الـمسكونِ الذي لاَ يُؤَاتـي، وبالبلاغةِ اليقظى من ارتجـاج العجلاتِ على الحبرِ، صارخاً بـي: لاَ تفتحِ الـمساءَ على مصراعيهِ، ولاَ تقدِّمِ الليلَ بتعريفٍ إلى أشِقَّائِكَ الضاحكيْنَ، فالنهارُ لن يؤكِّدَكَ بثرثراتهِ؛ لن يؤكِّدَكَ ضوءٌ، والـمصابيحُ الكبيرةُ نعاسٌ يقظان.

فلا تمتحِنُوا اليأَسَ:

خِدعةٌ هذا الهواءُ الذي يُصرِّفُ بأسنانهِ،

والنحيبُ المتصاعدُ، فراغاً بعْدَ آخرَ، نحيبٌ يضلِّلُ المشيِّعينْ.

ولا تمْتحِنُونِي؛

لا تمْتَحِنُوا أسْرَايَ بمُشَافهاتٍ كبيرةٍ؛

لا تمْتَحِنُوا الموْتَ الذي يَسرقُ الرّيحَ من فِخَاخِنا.

إنها القطيعةُ.

إنها القطيعهْ.

1987

مَـهَـابـَـاد

(إلى أولمبياد اللّه)

لِلْعظام رنينُها،
وللقُبور رنينُها،
والفجرُ، الأكثر اندلاعاً من حريقٍ، يدلُّ الموتَ على قاطنيه.

فلاتكتُبْني، الآن، أيها الملاَكُ، بالحروفِ ذاتها التي توبّخُ الحياةَ على جرائرِها العذْبةِ، وتستحي من الحبرِ فترتدي يقينَها. ولا تكْتبِ المنفى المفتوحَ كبابٍ رَكَلَهُ العابثون بمفاتيح الأشكال.

أمّا الأَرَقُ، الذي يبعثره الأطفالُ الهائمون في الحديقة، فهو الأَرَقُ المُسَطَّرُ طولاً وعَرْضاً، والمَمْحُوُّ بالأعقاب الغادية في أعْماقِنا، حيث الطَّرقاتُ القويّةُ لأقدامٍ قويَّةٍ، وحيثُ تنحدِرُ اللّفافاتُ، التي يرميها البنّاؤون ــ في إهمالٍ ــ إلى غَدِهم.

والأحافيرُ بيني وبينك أيُّها الملاكُ: جِرافاتٌ، ورملٌ، وسَحَرَةٌ يسرقون أخشابَ النوافذِ ومقَابضَ الأبواب التي من نُحاسٍ، وعرائسُ من شَفقٍ ذائب بين الأيدي . أمّا اللاَّعبون ــ هؤلاء ــ الذين من شُبهاتٍ تبعثرُ التاريخَ على أنقاضهِ، فَهُمْ أمانةُ الفجر بيْننا، حتى نعثرَ لهم على مساكنَ تليقُ بالعظام.

واللاّعبونَ يمتحنونَ الفجرَ الآن، بعِصيِّهم الطويلةِ وكُراتهم؛ بقفزاتهم، وحديدهم الخفيفِ مثل شَفَقٍ محمولٍ على حِمَارٍ. أمّا الأرضُ فهيَ لهاثُ المُشاهِدِ المختنقِ، حين يركضُ إلى السياجِ صارخاً: «أَوْقِفوا هذه الحقيقةْ».

وما السَّرْدُ إنْ سَرَدْتُ؟ إنّهم هناك:

المهجُورون، والعدّاؤون؛ رافعُو الأثقالِ، ورُماةُ المطارق؛ عابرو الحواجز ركْضاً، والماشُون باتّكاءٍ على حَقَواتهم؛ والقافزُون عالياً بقصَبَاتهم الطويلة، والجاثِمُون على مدارجِ الحَلَبَةِ يمتحنون الثِّقَلَ الذي يشدُّهم إلى الحريق.

وعليَّ، كلاعبٍ مُمْتَحَنٍ، أنْ أتقدَّم ــ بدوري ــ لأرفعَ الحديدَ الذي يرفعُهُ الآخرون، بيقينٍ مُسْتَتِرٍ لا يتوخَّى الغَلَبَةَ، بل الوقوفُ أمامَ الحشدِ الهائمِ في ذكرى انتصارهِ الناقصِ على مجدٍ ناقصٍ، صارخاً: يالَثِقَلِيْ:

كيف أترهَّلُ هكذا، عَضَلَةً عَضَلَةً، وعَظْماً عَظْماً؟ كيف أتجنَّبُ الموعدَ الميّتَ الذي عقدتُهُ لِلِقاء الموْتى؟

لكنّني خائفٌ من الحشدِ هُناكَ، الذائبِ على المدارج كَدِهَانٍ في

الظهيرة، لـذلك أجْمع أضـلاعي في صفٍّ واحـد، وأرفع رئتيَّ علـى فَجرٍ مهْزُوم، وأنا أقذفُ بـالرّمح في الحَلَبَةِ، أمامَ الحَكَمِ السَّـاهر على سَهَرِه، ليقولَ إنني رميتُ أبعدَ ممّا يُرمى رُمْحٌ في حَلَبةٍ ساهرةٍ على حَكَمِها.

أأقفزُ قفْـزتي، الآن، أَمْ أقطعُ الشوطَ القصيـرَ الذي ينتظرُهُ أتـرابي، وأنـا أنْحنِـي حتى تُـلامـسَ رُكْبتـايَ أرضَ السبـاق، وعيْنايَ علـى الشَّفَـقِ المرتدي قناعَهُ الأبــويَّ؟.

أأُقسِّم الحَلَبَةَ بيني وبين الشاردينْ؟

سَـأقذفُ الكُراتِ كلَّهـا، التي لنْ تُصيب مـرْمًى، وسأتزلَّـج بحِكْمةِ الثلج الـمفْطُومِ عن رضاعـته؛

سأقدِّم هِبَاتي؛

فالريحُ، وحدَها، تسرق التينَ من راكضٍ لم يقتطِفِ التين.

وكأبٍ لم يبْلُغْ أبوتَـهُ، بَعْدُ، سأتفحَّـصُ المساءَ المتوثِّبَ للرّكضِ، وازِناً، في أعْماقي، بين قفزاتِهِ وقفـزاتي، وأنا لا أريدُ غَلَبَةً، بل أن تكْتمل المباراةُ بحاضرِيها، كي لا يتقوَّلَ الخاسرون على حَكَمٍ لا يُهْدي إلى أحدٍ شقاءَ انتصارِهِ، ولا يحسبُ الضّرَباتِ التي تُميْت.

وأنا هنا، على أيةِ حالٍ. أنا، والحضورُ هناك، والجهاتُ الـمأخوذةُ بِخَفْقَةِ الدمِ الـذي يخْرج عن طَوْره كـلاعبٍ مطرودٍ، حين تتقشَّـر النهايةُ أَلَقاً أَلَقاً، ويُغْمى على الألم؛

وأنا هُناك، محفوفٌ بجيرانٍ من التّعـب، وأفوِّضُ النهارَ أن يؤكِّدني بسطوتِهِ العمياء؛

وأنا هُناك، مـوزَّع بين العدَّائين، فـي الفجر الذي لن يـربحه أحدٌ؛
في الفجر السَّيَّافِ الذي يجرُّ صباحاً مُثْقَلاً بنَمِيمة الريح؛
وأنا هنـاك، تتقدَّمنـي شاحنـاتٌ عجولـةٌ تنزلـق عن مقـاوِدِها أيـدي السَّائقين، ريثما تتأمَّنُ للمْوتى مصادفةُ موتٍ آخرَ يختلقُ الحياةَ بأكاذِيبـه.

أأَبُوح لكُمْ كمْ خدعَني الجيرانُ لأدخلَ هذا السِّباق؟:
أَوْهَمُونـي أنَّ لي رشاقةَ السِّلـكِ، وفُجُورَ السِّياج. وأوهمُوا حـديقتي أنها الطيرانُ الباحثُ عن ريشٍ، ثـم اسْتَلْقَوْا على حُصُرِهم، تحت النَّدى الفاجرِ لصبـاحٍ مسكوبٍ من إبريقٍ حَجـريّ، وتأمَّلُوا خُروجـي منَ البابِ بعْدمـا وضعُوا أمامَ العتبـةِ خُفَّيْنِ رياضيَّيْنِ، وقميصـاً غريقاً. وأنـا اتّخذتُ ذلك سبباً لأسْتسلمَ بقيودٍ من الأرقام إلى انْتِصَاري.
لقد فَتَنْتُهـم: فَتَنْتُ الجيـرانَ، والحَكَمَ الـذّابلَ، والضـوءَ الـمُمْسكَ بزَانَتِه الطويلَةِ، والحَلَبَة، معاً، راكضاً من مشيئةٍ إلى مشِيئة، ومن حِبْرٍ إلى حِبْرٍ، مُلتقطاً خَرَزَةَ الآدميِّ الـمكسورةَ تحت أقْدامٍ سبقتـني ولمْ تنتصرْ.

حَدِيثي فظٌّ. أعرفُ ذلك.
مُشافهاتي الصغيرةُ فظّةٌ. أعرفُ ذلك.
خُطواتي فظَّةٌ لأنني هيأْتُها للسّباق.
وأنا فظٌّ، لأنكـم تدركون المَعْنى فـي اشتغاله على يقيـنٍ مُهشَّمٍ في مرآةٍ مهشَّمَةٍ يتطلَّع إليها الـمهجُورُون.

والأرضُ فظَّةٌ، أيضاً. هـذه الزَّاناتُ الطويلةُ للقَفْـز، والـمَطَارقُ التي تئِنُّ في قَذْفِها، والأفخاذُ الـمقروءةُ على عـَجَـلٍ ــ حين تتنهَّدُ عضلاتُها بالشهوةِ التي فيها إلى خسارةٍ لا تُحْتَسَبْ ــ كلُّها فظَّةٌ.

والحَلَبَةُ فظّةٌ، لأنها ترْوي الثِّقَلَ الأكبرَ للموتِ بصوتٍ خَفيْض.

(أيّها الموتُ،

ياأسْمالاً على كتِفَيْن قويتّين؛

يـا مِمْحاةً تـرتجفُ، ويـاقـوتةً غيـرَ مُثْبَتَـةٍ في الخاتَــمِ على نحـوٍ مُحْكَمٍ؛

يا مُبدِّداً نَفْسَهُ بين الألقابِ،

كأنّما سُلوقيٌّ يجرُّك لاَهثاً،

وكأنّما ذاكِرَتُكَ تَتَراءى قِطعاً مقذوفةً من الشُّرفات.

أيّها الموتُ،

ياغريقاً تمتدُّ إليه الأيدي كُلُّها،

خفِّفْ مُسَاءلاتِكَ قليلاً).

لكنّني راكِضٌ بـزانَتي الطويلةِ، وسَـط الهُتافِ الذي يجعلني شـريكاً لأوَّلِ راكِضٍ آدميّ وسط الهُتاف. وحين أتّكِـىءُ عليهـا باندِفَاعيَ الأقصى، متَّخِذاً لجَسَدي رَمْيَتَـهُ القوسيَّةَ، يشهد الهـواءُ لحذاقتي، ويتفنَّنُ الضوءُ في

سرْديَ شُعاعاً شُعاعاً على طفولتـه التائهةِ، لأنني استباقُ المراهنينَ وصْفَ يقينهم الذي لا يُوْصَف.

وفي عُبوري، قافزاً، يدحرج الجـالسُون على الـمدارجِ أشكالَهم، قـابضيْنَ مـلءَ الأيدي علـى قفزاتٍ مُخْتَزَلَـةٍ بين الجنـون والجُنون، وهـم يصْرخون بي: «خُـذِ النهايةَ»، فآخذُ النهايةَ برَمْلِهـا، ودِهَانها، ووَرقِها، وإسفلتِهـا، وحَرَسِهـا، وحـلاَّقيهـا، وسَواتِـرهـا، ونُعـاسِها، وشهَقـاتِهـا، وكَراسِيِّها، وتمَاثيلها، واعتذارِها الذي يدْلقُ الدَّمَ في مِصفاتِهِ.

والعدمُ يندفع، أيضـاً، إلى المنصَّةِ التي يرفَعُ حـامِلُو الأثقال عليها الفَنَاءَ الـمسبوكَ كحديدٍ منْ عسلٍ، فآخـذُ مكاني بين المنْذوريْنَ، لأصعدَ ــ بدوري ــ إلى المنصَّةِ، وقد مَسَسْتُ براحتيَّ الرملَ الذي يُجفِّفهما لئَلاَّ ينزلقُ فيهمـا الحديدُ. وأرفعُ الـــمساءَ، خَطْفاً، ثلاثين حَجـراً، وأُقَتِّيْنِ مما تركـتِ الحياةُ علـى الـمساءِ مـن سَهَرِهـا، وقراريـطَ أخرى مـن شحُوب الـمقامرِ الذي يوزِّعُ الريحَ على أخواتِهِ.

أأُسمّي لكُـم الأعلامَ التي هُناك، فـوق الشُّرفات العاليـةِ الـمستندةِ على البنادق؟ أأسمّي لَكُم البنادقَ الكثيرةَ هناك، حيث البطولةُ التي تتقنَّعُ في الدخُول على الكُرديِّ من حيائِها؟ أأُسمّي الكُرديَّ ليتدفَّأ الليلُ بقميصهِ الـمُنْتَهَب؟

قفْزتان، في الشوْطِ الأول، بِزَانَةٍ مكسورةٍ؛
قفْزتانِ باحْتكامٍ إلى إلهٍ مكسُور.

أآخذُ المساءَ أسيراً ليكتملَ ليَ الوصفُ، أمْ أتركُ المساء لاجتهادِهِ الرياضيّ؟ أأجمعُ المَطارقَ المقذوفةَ، في نهاية المديحِ، أمْ أكتفي بالذي معي من عويلٍ محسوبٍ بأمتار محسوبةٍ، في الدَّورات المُتْقَنَةِ لضجرِ الإِنسان؟

سأرفعُ هذَا الحديدَ، إذاً، على الخشَبة القوية التي تهتزُّ تحت قدميَّ القويتَّيْنِ. سَأشهدُ امتحانَ العَضَلِ وامتحانَ الهَواء، حين تتَّخذ الشرايينُ النّافرةُ أُهْبَتَها وهي تمهِّدُ للدَّم عُذْرَتَهُ وفُجورَه.

سَأرفعُ هذا الحديدَ بحكْمةِ الحديد.

سَأُقْسِمُ أن الحديدَ المرفوعَ على يديَّ هو الغدُ مغسولاً في رئةٍ كُرديّةٍ.

هَكَذا أُلْقيَ بيَ في اللُّعبة.

هَكَذا أَلقيتُ باللعبةِ إلى ما يُشْغِلُني، لأعتكف كالنَّجَّار على تقدير الزّوايا في الملهاةِ، عادياً بالصَّريرِ الذي يمهِّدُ للأقفالِ كي ترَى، وبالفتنةِ التي توحِّدُ الأنقاضَ.

فَلْيحضُرِ الرُّسُل كلُّهم، بالألمِ المُتْقَنِ كريشةٍ، كي يحدِّثوا الحياةَ حديثَ المُراهِنِ، ولينقسموا حين يَرْوُوْنَ، لأن النّعمةَ تُصْغي بآذانِ

طائشةٍ، ويدوّنُ الحاضرُ الأنينَ بثرثَرةِ مُطَلَّقاتِهِ، لا بكَلامِ الشهود.

ولْتكُنِ القفزةُ عاليةً،

والركضُ في مُنْخَفَضٍ عالٍ؛

ولْتكُنِ الـملائكةُ تحت القوْس،

في الـمَدْخلِ الشماليّ للحقيقةِ،

مرتديةً معاطفَها التي لهـا، وهي تقضمُ البُندقَ، ريثما تُبَلِّغُ الـمرئيَّ ــ شِفَاهاً ــ أنَّ الفكاهةَ ستَتَخَيَّرُ غِلْمانَها، وسيخْرجُ الحَاضرون منَ الحلبة بالأباريق التي لم يترْك عليها الموتُ شيئاً من نقوشِهِ الحيَّة.

يا لَـ «سَنْجارَ» الراكضِ إلى طُورُوسَ؛ يا لـ «جزيرة بُوْطَانْ»:

مَعاقلُ شفيفةٌ، وأسوارٌ كالأيدي تتلقَّفُ اللؤلؤ،

وهَياكلُ تكَمّمُ الرّيح.

أمّا الصّـاعدُون، مثْلي، إلى الظّـلام، على سَلاَلـمه البازلتيَّـةِ، فهُم امتحانُ اليقظةِ الحالمةِ بعِراكِ النَّجَّارينْ.

وأنا..

أعَلَيَّ، أنا، أنْ أحـتكمَ إلى أحدٍ؟:

دولٌ مذعورةٌ، وقَدَرٌ يتدحْرجُ وراءَ كُراتهِ الطينيّة.

والوحدةُ تسرّح شعْـرها صباحاً، لتَتقدَّمَ البنّائينَ إلى الأبـديّةِ، كأنما سأُعيرُها ــ بعد قليلٍ من الموتِ ــ حِكَاياتي، لتسْرُدَ علـى العَدَم حنينَهُ

الآليَّ، وكـأنما سيمْتحن الكُـرْدُ بها قهْقَهاتِهِمْ، وهُـمْ يجذِّفون بمَجَـاذيف الجليدِ إلى المصَّباتِ الكبيرةِ للأنيـنِ الكبيـر.

إلهي،

هَؤُلَاءِ أكْرَادُك، إلَهِي.

.. والبُنـدُق يتَنَاثـرُ. الإجاصـاتُ تتناثـرُ. الكُمّثْرَى يـوزّع الأدوارَ، والقمحُ يهذي:

لِتَكُن السنبلةُ مشيئةَ الموتِ،

لِيَكُـن المـوتُ أكثـر صَخَبـاً فـي الممرّاتِ التي يتقشّـرُ كِلْسُـها، ويتحدَّث العابرُون فيها حديثَهم الـمؤجَّلَ بهمسٍ خَفِيْضٍ.

فَـلاَ تأخُذني أيهـا الملاكُ بجـريـرَةِ الحـيّ، لأني أُقـسّمُ الـمصائرَ ـــ مِثْلكَ ـــ كالدُّرَّاقِ على العَـابثِيْنَ، وأرمي بيـديَّ الهَاذِيتين شبَحِـي من الباب ليُسَرّيَ عن الحياةِ بأقاصيصهِ.

ولاَ تنْتظرني، أيضاً، لأنـي ــ كرَاكِضٍ في الأقاصِيـص ــ يختطِفُني الذي لا يُرى، وأكـونُ النهايةَ حين لا يَخْتَتِـمُ الحادثُ سَرْدَ نهايتـه. فإن رأَيتَ أن تتْبـعني فارْفع زانَتَكَ الطويلـةَ، وانتَعِلْ خُفَّيْكَ الرّياضيّينِ، لأنـك ــ كراكضٍ فـي الأقَاصِيص مثْلي ــ سَيتقاسَمُكَ الــمُراهنون في اقتحامِهِم ــ الـمديحَ باباً باباً، بالحظوظِ التي يُباركها الخوفْ.

ومن « مهـابادَ» إلى « مهـابادَ» تأفّـفْ قليلاً، مثْلي، أيُها الـمَلاَكُ،
وأنـتَ تفـكُّ سُيـُورَ خُفَّيْـكَ ، وتخلـعُ قميصـكَ التـرابـيَّ، متنفِّسـاً حتـى
عِظامك، كأنّما حرَّرتْكَ المدائحُ من عَوِيلها، وبكَتْكَ القهقهةُ؛
كأنّما

فِتْنةٌ

أُخْرى

تسْحلُكَ

مِنْ

سمَاءٍ

إلى

أُخرى،

ويُوْجِزُكَ الألمُ، الذي يعلِّق الهواءَ كمعطفٍ إلى مشْجَبِهِ.
ومن حـريقٍ إلـى حريقٍ فلْيَغْتنـمِ القَدَرُ ما يتيحُـهُ الكُرْدُ للقَـدَرِ من
ثَرثـرةٍ يسردُ بهـا على الأرضِ كَسَلهُ الـذَّهبيَّ. قبـل أن يَقْتَحِمَ الـراكضون
بأشْبَـاحهم سياجَ غـدِهم الـمذعورِ، وهـم يرمون قُمصَـانَهم ليتدفَّـأ الهواءُ
بها، ويتركونَ أحذيتهم للحصارِ كيْ ينقلَ الحصارُ الجرْحَى من الوردِ إلى
الوَرْدِ ماشياً.

والريحُ؟! مالَها؟ من « مَهَابَادَ» إلى « مَهَابَادَ» أيضاً.
كلُّها من « مَهَابَاد» إلى « مَهَابَاد».
كلُّ ضربةٍ من « مَهَابَاد» إلى « مَهَابَاد».
كلُّ عويلٍ من « مَهَابَاد» الى « مَهَابَاد»،

والأمومةُ حيْرى بأثْدائِها ا الحجريَّةِ بين أبنائِهَا :

فإنْ أيقظني اللّهُ، في المديح الرَّطب للدَّمِ، أحضرْتُ خُفَّيَّ،
وإنْ أيقظني الدَّمُ أحضرْتُ اللّه.

لكنْ، كألمٍ تتقدَّمُ الأجنحةُ؛
كَألمٍ يتقدَّمُ الكُرْدُ إلى الحقيقةْ.

كَألمٍ يسردُ الفجرُ على بَنَاتِه المكانَ رحيلاً رحيلاً؛
كَألمٍ يدْخلُ النهارُ أعمى إلى « مَهَابَاد».
وأنَا،

رَحِيلاً رَحِيلاً — بِزَانتي ذاتِها؛ بالخفَّيْنِ الرياضيَّيْنِ، والتصْفيق الأخرس المنْسيِّ على المدَّرجاتِ، حيث لم يصعَدْ أحدٌ — أجفِّفُ العَرَقَ عن جَبينك أيها الملاك، وأسندُ جناحيْكَ بعظامي، لألتقطَ الأرضَ التي تتَساقطُ، منْ خلفكَ، عاصفةً عَاصفةً، وجَمَالاً جَمَالاً، ريثَما أُطلقُ السَّهمَ الأخيرَ في اتِّجاهاتِ الدَّمِ الأخيرةْ.

وسَأُحْصي نَفْسِي، بعْدئذٍ،
أنيناً أنيناً،
من «مهاباد» إلى «مهاباد».

1988

مَحْمُود دَرْوِيش

I/ الـمكَان بِحَسبِ انْشِغاَلاَتِه

أ ــ وصْفُ الرِّيح :

غدٌ يمضغُ اللُّبَّـانَ كصبيٍّ نَزِقٍ، فاتِحاً أزْرارَ قمِيصِـهِ الكَشْميرِ تحت شجرةِ الأكَـاسْيَا. وهــو ـــ كأيِّ غدٍ ـــ نحيـلٌ وهادِىءٌ. وفـي التِفَاتَـاتِه، بالنّاظُور الذي يرفعه إلى عيْنَيْـهِ مُسْتجْلياً، رقَّـةُ حوذيٍّ يُسرِّح جيادَهُ. لكنَّ القلـمَ المعـدنيَّ ـــ الـذي يسقط، فجـاءةً، مـن بيـن أَنامِلـه، إذْ يـدوِّن كالمَسَّاحِ فتـورَ الـمشهدِ، والزوايا الـمُشتَبِكة بـالقُبَل الـمُشتبكةِ ـــ يرتطم بالأقْدارِ، مُجَلْجِلاً بصدىً يصِلُ الأعماقَ بأدراجها، فتصْعدُ الريحُ.

ب ـ وصْفُ الظّلاَل :

بِيَقينٍ شاحبٍ ترفعُ الظلالُ سراجَها الشاحبَ في الأَنْفاقِ ذاتِهَا التي تَنْتَحِلُ الحياةُ فيها أشكالَ الـمنتظرين، والحقيقةُ تختلسُ من خزائنِ الحقيقةِ عصَا الأعْمَى وقفّازي الـمهرّج. فإذا تعثرتِ الأبديةُ بحقَائبِه المركُومةِ على الأدْراج فَلْتعتذرْ، لأنه ينسُجُ الـمشيئةَ على صُورَتِهَا. وبتوقيتِ الأبديةِ الذاهلِ، الذي تتدلَّى منه أُثداؤه النُّورانيةُ، يضْرِبُ الـموعدَ الأول مَع الـمصَائِرِ، هناك، تحْتَ الشجَرةِ التي يعضُّ النهارُ على حنينها بأنيابٍ من الكَافُور.

جـ ـ وصْفُ الشُّرفة :

قضبانٌ رقيقةٌ من الـمعْدِن ـ مطليةٌ دُونَ مهَارةٍ ـ تقطعُ الطريقَ عَرْضاً، لتسوِّرَ الأرضَ بامتلاكٍ لاَ نِزاعَ فيه. وهي باردةٌ قليلاً ذلكَ النهارَ الـممسكَ بلجامِ السّاعات التي تمسحُ بالشَّحمِ عَتَلاَتِها الإِلهية، وساهمةٌ في الهُبوب الخفيِّ لأنفاس الأَصَاليا على نُعاسِ الهَواء. وثمَّتَ ـ في اقْتِرابٍ مَرِحٍ ـ عصافيرُ تطحنُ الهواءَ ذَرُوْراً على ريشِهَا، متفتّحةً كَتَرَفٍ يبُلِّل الـمعْدنَ الصامتَ. أمَّا القِفْلُ المتدلّي من سلسلةٍ تطوِّقُ القُضْبانَ، فالأرضُ وحدها تُصْغي إلى نبْضِهِ الدّافىء، وإلى فُتورِهِ الذي تستعيرُ الجذورُ منه مهاراتِها.

د ــ وصْفُ الـمصْعَد :

لِلمُكعَّبِ الحيّ، في ردْهةِ الإِسمنت العمُودية، دوائرُهُ الـمُجَلْجِلَةُ، ومثلّثاتُهُ التي تخمّنُ الشهوةَ القادمةَ معَ الزّائرين؛ ولجُدرانه نشيدُها المُرتّل، صعوداً هبوطاً، بأفواهٍ من أنـابيبَ وأسلاكٍ. وهو يتكتّـمُ ــ بحَسب فـراغِه المُتَكتّم ــ علـى قاطنيـه العابـرين، تـاركاً لأنفـاسهم وَحْـدَهَا أن تسـردَ الحمّـى، وللعُطور الشـريـدةِ أنْ تموّهَ الجهَـات. لكنّه يـرشـدُ القلقَ إلـى عتبات الأبـواب، بجمالِ العبَـثِ الذي فـي خَلَجاتـه الآليَّة، فيقـرعُ الثّقَلُ سُكونَ الثِقَلِ، ويُصْغي الظلامُ ــ من الكُوَى ــ إلى الضّوءِ الذي يترنّحُ في سُعاله الطوِيل.

هـ ــ وصْفُ الرّدْهَة الخَارِجيّة :

مدْعسَتَـانِ، ونهايـةُ دَرَجٍ. أعقابُ لِفّـافاتِ تبـغ قديمـةٌ نَجَتْ مـن مكْنَسةِ الخادِم، التي تركلُ الورقَ الساقطَ من الأُصص بُخُفّيها المثقُوبيْن. وتمتَماتٌ كثيـرةٌ نسيَها الـداخلُون والخـارجُون، تتشـاحنُ بلهجـاتٍ تقْضمُ أظافِرهَا، في انتظار الخُطَى التي ستَفْتح البَاب.

و ــ وصْفُ رِوَاق البيْت :

طليقـةٌ رسـومُ السجّـاد. والتّصـاويـرُ، علـى الجَـانبيْـن، تتصيّـد بِشُصُوصِها رفاهَةَ اللونِ، كأنّما ناظـرٌ مّا، وحيدٌ في هُمومٍ ترتجلُ أناقتَها،

سيرفع قلبَهُ مُحَيّياً، وعينّاه تتسلّقان ستارةَ الأبدية.

ز ــ وصْفُ البيْت :

الغُرَفُ تتناظرُ. الأرواحُ تتناظرُ. الشُّبهاتُ القويّةُ تحومُ حولَ أُصصِ النباتِ في الزوايا. والرُّفوفُ الثقيلةُ تُسَهّلُ، خلْسَةً، عبورَ الكلماتِ من كتابٍ إلى آخر. أمّا الأصدافُ المُنَضَّدَةُ، كَزِينةٍ، قربَ الأرائك، فهي فكرةُ الماء المُتَكَتِّمةُ على لَوْعَتِها. وما مِنْ رمادِ لِفافةٍ يسقطُ في منْفَضَةِ نُحاسٍ إلاَّ يتبتَّل، كأنه ينكفىء على مذاهبِه ليهيِّىء النّحَلَ. وثمت حقائبُ أيضاً، وأشباحُ حقائبَ تتأمّل خرائطَها اللّهبيةَ، مُفْتَعِلَةً جِدالَها لتُلْفِتَ الداخلَ إلى أنَّ المُمْكِنَ، وحدَهُ، هو الساهرُ على فتوحِه المُمْكِنَة.

II / مَشِيئةٌ تؤلِّف المشْهَد

أ ــ مِخْبرتُه :

أيتهَا الحُمَّى الأكثر شروداً؛
أيتهَا الحُمَّى ذات المكاييلِ التي يندلقُ منها الصَّعتر،
ضَعِي ساقاً على ساقٍ في مقْعدِك العَالي،
فالواقفُ في الحَلَبة، بظلّه الذهبيِّ، سيطيلُ الوقوفَ حتى تخرجَ الأعمدةُ عن طوْرِهَا، وتنهضَ المُدَرَّجاتُ إليه مهرولةً بالجالسِين عليْها.

والغبارُ سينفضُ عن قبّعة الغبار، بفرشاةٍ من الألق، سَهَرَ الأقفالِ، وستتماوجُ المراوح الأنيسةُ حيث تلتقط الفتنةُ من أيدي الأميراتِ زبيبَها، لينشغِلَ الموتُ الخفيفُ بالتقاطِ قُطنهِ المتناثر، فالواقفُ في الحلَبة يسندُ الأعالي المهدومةَ براحتِه الأكثرِ رقّةً بين الرّاحَاتِ، ويَعْذُرُ الغدَ الذي يعتذر إليْهِ كبُستانيّ أهملَ الحديقة.

أمَّا التواريخُ التي تتَعاركُ قرْب محْبرتهِ، كرُعاةٍ تداخلتْ قطعانُهم، فلا تلبثُ أن تعُود إلى قيْلولَتِها.

ب ــ عُلبة تِبْغِه :

مَنْ سيعْبث بالنشيدِ أكثرَ حتى تتعثَّرَ الريحُ، ويُحضرَ الغمامُ أزاميلَهُ ؟ مَنْ، لِفافةً لِفافةً، في الثِّقَلِ المُمْسِك ببُوقِه، يحرقُ الستارةَ ليرجعَ الممثّلون إلى المقَاعِد التي سُرِقَتْ؟

ذهبٌ أثيريٌّ يتماوجُ صاعِداً أعْلَى فأعْلَى،

والدخان الذي يخرجُ ناعِساً، بِدَفْعٍ خفيفٍ من شفتين ناعِسَتَيْن، يصرفُ الملوكَ، كأنّما ــ في خَلْوَةِ الأقحوانِ ــ يوزّعُ الواقفُ النحيلُ إماراتِهِ.

جـ ــ قهوتُهُ :

فلْيَدْخُلِ النهارُ الـمزمجرُ برهْبَـانِه الجَاحِدين؛ بِدَلاَفِينِـهِ، وبالحركة الحنُونةِ لأذيـال النّمور. فليدخلْ مُشَتَّتـاً يجرُّ كرسيَّهُ النـورانيَّ، أو مذعُـوراً كغزالاتٍ يقْفِزْنَ عن السّياج العالي للحقيقةِ العالية.

فليدْخلِ النهارُ مغْلولاً في سلاَسِلِ البُنّ،

يتقدَّمه الـمغيبُ إلى حِصَار النّبوءة.

د ــ كسَلُه الصّبَاحيّ :

كتاباً كتاباً يفتح الجدارُ ذو الـرفوفِ عينَيْه، والستارةُ التي تنْزَاحُ، في خفقاتٍ تؤجّجُها يدٌ كسولةٌ، تحـرّرُ الشجرَ العالي، وتُطلق سراحَ الأبنيةِ.

وثمَّتَ مَنْ يلمُّ، بعد ذَا، ما نسِيَه الليلُ على الأرائكِ من مجاهلَ،

وحروبٍ،

وحِليّ،

وفوانيسَ،

وحبرٍ،

عائداً بِهَا إلى سريرِهِ الذي تناهبتْهُ المجاهلُ،

والحروبُ،

والحِلَى،

والفوانيسُ،

وتمدَّدَ عليه الحبرُ في غلالتهِ الشفيفة.

هـ ــ سِيــرةُ قلْــبِه :

تَمَالَكْ، أيهـا الحريقُ، نفْسَـكَ وأنت تنشـجُ نشيجَـكَ العالـي، إذْ يجْعلكَ الألمُ ممتنّـاً للأليف الذي فيـك، وللشّفافةِ الـمحبوكةِ بقُبَـلٍ تسهرُ عليكَ سهرَها الفاتنَ. واتّسِعْ فـي هدوءٍ، فالـمكانُ لك بطَنافِسهِ، وآجُرّهِ، ومـواثيقهِ، وسُعـاتِـهِ، وكمائنـهِ التـي تلتمـع كأسنـانٍ ذهبيّـةٍ. ولك الهـواءُ المدحـورُ في الــمعركةِ، وتراجُـعُ العاشـقِ، والجرْحَـى الذيـن يتوسَّلـون الضّربَةَ الأخيرةَ من الجرْحَى؛

لكَ

أيها الحريقُ؛

لكَ،

أيها الحريق. .

حينَ الأبعـدُ يرتجـلُ فِرَاسـاتِهِ، مُـرْسلاً صقـورهُ ذات الأطواقِ إلـى الـمشهد، ليُشيرَ العائدون من القيامة بأناملهم هامسينَ: «ياللّقيامة».

و ــ نظّارته :

في كلِّ ركنٍ من خزانةِ الثيـاب نهارٌ متنكِّرٌ. وعلى الـمائدة ـــ قربَ قارورة الخـلِّ ــ شـروحٌ وبسالاتٌ خلّفها الـزّائرون. وثمّت مجاهـلُ رشيقةٌ تتأمَّل زينتَها فـي المرآة، وسِيَرٌ ممتزجةٌ برائحة دِهان البـاب، وعناقيدُ ثومٍ تلتقطُ فراشاتِ الطّهوِ الشاردةَ.

وهْوَ

إذْ يتلمَّسُ نظـارتَهُ يتلمَّسُها لاَ لِيَرى هـذا كلَّه، بل ليُلْقِيَ نظـرةً على شبحِهِ الباحثِ، فوق السرير، عن قمصانِهِ التي تُبَعْثِرُها الأناشِيد.

III/ هُوَ، في الأَكيدِ ذاتِه..

صَخَبُهُ صخبُ الزيزفونِ. جهاتُهُ جهـاتُ الزيزفونِ. وحْدَتُه ما يعتذر الوردُ به إلى الوردِ، والـمكانُ حَجَلٌ في يـديهِ. وحيث يتّكِىء بمرفقِه على الوسادة تتّكىء الفكرةُ أيضاً، مُنْشَدِهَةً بالرحيلِ الذي فيها. فإنْ أَسَرَّتْ إليه مصبَّاتُهُ بالغمام المجلوِّ تحت سيوف الرَّذاذِ اسْتَشْرَى، دافعاً بأقواسِ قُزحِ إلى الـمنابعِ، وهو يطعـمُ الـمدائحَ ــ الـمتزاحمةَ كالسّمـانى على حَقْلَيْ مَنْكَبَيْهِ ــ من أقداره.

وبانقضاضٍ كالنِّعـمـةِ يأخذُ الممرَّاتِ إليه،
كأنَّه ــ هو ــ مَنْ ستسْرِدُهُ الحديقةُ على مواجِعِـهَا،
ومَنْ سيَرفَعُ الخَفْقَةَ الأقوى إلى الجَناحِ الأقوى.

وبانقضـاضٍ كسَكينةِ المعْـركة سيحرِّرُ الليـل من ظنـون الحقيقةِ، وهو يلفُّ مِئْزَرَهُ على الخنادقِ، كأنَّ الخنادقَ أطفالُه الـمستحمُّون.
أمَّا الفراشاتُ،

التي تسوِّرُ الحبرَ بأسلاكٍ من يقينها،
فهي صفقتُه الأخِيرة.

وصخبُهُ ـ بعْدَ هذَا ـ صخبُ الشِّعابِ ينْهبُها المنهوبُون، مسْحُوريْنَ في سطوعهم على الألم السّاحِر. وبالذي فيه من ناياتِ الرّخامِ، التي تتقدَّم السَّكينَةَ إلى ميراثها، يطوِّقُ الخرائبَ المتألِّقةَ في غَضَبِهَا، والألَقَ ذاتَه المُمْسكَ بفرشاةِ الدَّهَّان ليرسم مآذنَ العشب وقبابَ النَّدى. ويدلُّ الشُّهودَ، الذين يجرُّون الشهودَ من الأكتاف، على المشهدِ، ماسحاً زجاج نظَّارتِه من ضَباب المكِيدَةِ، ليبتسمَ أكثرَ:

فالمذابحُ
تتأمَّلُ ـ
مشدوهةً ـ
حنينَهُ
الضاحكَ.

وما مِنْ خندقٍ في خَلَجاته إلاَّ يحْمِي المعجزةَ من فِتْنَتها، كأنَّه سيذهبُ بالمكانِ أبعدَ ممَّا يسعُ المكانَ، وبالدَّويِّ القادمِ إلى كلِّ أكيدٍ.

وهو يشرف كَنَذْرٍ ـ من الحقيقة التي تتسلَّلُ إليها الحرائقُ ممسِكةً بمقصَّاتها القويّةِ ـ على كَمائنِ البعيدِ، مُلْهِماً رُقَبَاءَهُ الفرَّانينَ أن يخْلِطُوا الحُروف بالأرغفة، تاركاً قلبَهُ ـ الذي يلتهم البروقَ فاجعةً فاجعةً ـ للكمين الأكبر، حيث تكتمُ الأناشيدُ أنفاسها لِئلاَّ يجْفَلَ الحبرُ، ويتمزَّقَ

السماءُ في دُروعِهِ.

وحيناً بعد آخر، إذ تتأمَّلهُ الحدائق، يُغْضي،

مُصْغياً

إلى

الحياةِ

تحفرُ

بأنامِلها

المسْلُوخةِ

خندقاً لِدُهَاتِها الـمكشوفين.

يا لشؤونهِ، إذاً ـــ

يالشؤونِ تعبثُ بالعاصفةِ،

وتداعـبُ الينابيعَ التـي تتقافـز كَجِـراء سلوقيّ بيـن مَتارِيسهِ ـــ

كمْ يجْلِسانِ متقابلينِ يرمي بِنَرْدِهِ على الـمنضدةِ وترمي بِنَرْدِها؛

كمْ تجلِسُ التواريخُ بينهُمَا وهْيَ تجفّفُ بأنفاسهِ ذؤاباتِها الـمبلُولة!

وهـو إذْ يميلُ فـي مجلسـه ليـداعبَ النهـودَ النـائمـةَ قرب يقينـهِ،

ويمْسَحُ بقميصه السلاسلَ الـمشدودةَ إلى الـمياه، يلتفتُ إلى الـمشيئة في

قفطانها النَّيروزيّ هامساً: «عِمي صباحاً».

فلاَ تتأفّفنَّ أيها الصباحُ إنْ زَجَّكَ في الـملهاةِ،

لأنَّ البطولةَ التـي تتأبَّط بَرْسِيمَهـا وخُوصَها ستُحيّيكَ مـن المجَازاتِ

الاسيرَةِ في رئتيْهِ، ومن الشَّفق النازِف لوعـةً لوعةً في الأكيد العَالي، الذي يدحرجُ الشهداءَ فوق حريرهِ خُوَذَ الموتِ الـمكسورة.

وهُمْ شهداؤُه، علَى أيّة حَال.

هُم شهداؤه الأكثر اقتِحَاماً للموت بمداخِلِ الآجُرِّ،

والبيوتُ التي يعبُـرون ساحَاتِها، شـارديْنَ في حنينهم، هـي سَلالِمُهُ الكبيرة إلى الـمديح.

فلا تتأفَّفَنَّ إنْ زجَّكَ في الورْدِ، وقيَّدَ المساءَ على كرسيِّه،

لأنه سيطلقُ الأمكنةَ من تعَبـه الشَّفيفِ حُرَّةً إلى هذيانها؛

حُرَّةً إلى آخرِ الألم،

أنيسةً،

تتمـاوجُ كـأعـرافِ الـدِّيَكَـةِ وهـي تستعـرضُ الـمغيبَ الــمتخبِّطَ كحنكليسٍ في شِباكِ الفَجر.

يالَهُ؛

يالَشُؤونه؛

يـالَصَرْخـةِ الكَرَزِ الــمكتومةِ في الفـيْءِ الـذي يتقاسـمُ قلبَهُ سَهْـلاً سهْلاً، ومدارجَ مدارجَ؛

يالَنَـا، كمْ سنُنَـادِيه فـي الحكايـة التي تُنـادِيه وقـد أثْقَلَها العـابِرُون برمَادِهـم العَابر. كَمْ سنقُـاسِمه النَّهبَ الذي يمسُّنـا بأقراطهِ حِينَـةَ ننحني مُقَبِّلِيْنَ فَـمَ الحياةِ الأبْعـدَ، هَامسِيـن: «جُرَّ رداءَ الخواتيم إليـك، وتلمَّسْ

بأناملك الحُـرَّةِ هذا الألمَ الـمشدودَ كجلدِ فَقْمَةٍ، فـرُبَّما سهرتْ كسهرِكَ الخسـاراتُ، وحاكَتْـكَ الـمصائرُ فبعثـرَتْ إِوزَّاتِ الخـزف الـمُنَضَّدَةَ علـى رفُـوف الغَيب. واسْتَـدِرْ رَخِيّـاً مـن مَكانِـك الطليـقِ فللبحـر قربَـكَ أنينُـهُ الطليقُ». يالَنَا. .

إنّه يجْمـعُ الـمغاليقَ في يـديه كمـا يجمعُ القلقُ القـرائنَ، ويخْطُو خطواته العِنَبِيَّةَ إلى بيَأنه، مُقتَفِياً أثرَ الموتِ الذي يجازفُ بنفْسه حين يلقي بها في الحقيقـةِ. وهو لا يعبأُ، في عبوره، بالـمشهد الـمستعادِ كبُرهانٍ، فالحروفُ تُنَكِّلُ ــ على أية حـالٍ ــ بالـمواثيق. وفي وسْعهِ أن يلتـفتَ من الـمُحْكَمِ إلى الـمُحْكَمِ، حيث النهارُ كَرَّاءُ نوارجَ، والتماثيـلُ تهيم على وجْهِهَا في شُحـوب الحَدائِق؛ حيث الـمعْجزةُ تتسـوَّلُ أَبَدَها من الغـرقى، والطيورُ ترقُد تحْت الأقنِعَة.

إيهِ،

في وُسْعهِ أن يتَقَرّى الـمفاتيحَ الكبيـرةَ التي تذُوب في الأيدي، وأن يجـرَّ الغبـارَ المُحْتشِمَ إلـى لَهْـوٍ مُحْتَشِـمٍ، فـالمعـادنُ خائبـةٌ، والضيـاءُ الـمسعورُ ضياءٌ مسعورٌ، والجُعبةُ الخَلِقَةُ تتسـاقطُ منها السّهامُ والأحابيلُ. أمَّا البقيَّةُ التي من رجاءٍ فهي، أيضاً، هناك بِبَرَكةِ الصَّرخةِ، مبتلَّةً بالحَليب الـمندَلِق على اللِّحى، والنبيذِ الـمُهْرَقِ فوق الأحذية.

وفـي وسعه أن يطـوِّق السـاعـاتِ الرطبـةَ مـن أثـرِ الأنفاس، تلـك

الـمغزوّةَ بفحولةٍ تستقصي الثمـرةَ الـمُهْمَلَةَ، ويُمَسِّدُ الحمَّى الذهبية حيث الأساطيرُ تدخلُ مرتعشةً إلى نصْرِها الباردِ. إيْـ

يـ

يهِ،

قَسَمُ المياهِ عليهِ؛ قَسَمُ الحظـوظِ عليـه ان يهيِّء البعيـدَ لبطـش البعيـدِ، متَّكئـاً بمشـاغلـه علـى الألقِ الـذي يغـورُ، عميقـاً، فـي جَمـالٍ منكوب.

قَسَمُ الـملهاة عليـه أنْ يَرِثَ الريحَ التي تتقـاذَفُ الكمالَ الـموحِشَ قِـلْعاً قِـلْعاً، كـأنما ــ في الحـنينِ الـذي يتجرَّأُ على كلِّ شيءٍ ـــ لنحيلٍ واحدٍ، بأزْرٍ من السنابل، أنْ يضلِّلَ الريح.

.. ومَن كَمِثْلِهِ سيـدلِّلُ الفكاهةَ حتـى لَكأَنَّ الجهات درهمٌ يتقـاذفهُ الشّحاذون؟ أنيـسٌ في الصخب الأنيـسِ، ولاقترابـهِ العيَّارِ دعابـةُ السارقِ الذي لا يأخذُ مِنَ الكُنوز إلاَّ تواريخها.

وهو يُحْصَـى

قَدَراً

قَدَراً،

بالحسابِ الفاتنِ للعنب،

ويُعَدُّ على الأصابع ذاتها التي توقِظُ الفروقَ.

فلا تتبرَّجنَّ له الـمواثيقُ، لأنّه عاكـفٌ على هذيانِ الماء، مندفعاً ــ بانْسِكابٍ لا يُمَسُّ ــ بيْنَ الأغانـي، ومن حوله حمائمُ الآجُرّ التي يلتهمها

اليقيـنُ؛ مِـنْ حولـهِ العظـامُ الـمَنْسيّةُ تحـت وسائد الـملوك، والحقيقـةُ الـمُنْصِتَةُ إلى صُقـورها العمياء. أما الملهـاةُ، ذاتُ الأوداج الـمتورِّمةِ من النَّفْخِ في الأبواق، فهي تقفزُ من محْبرتهِ كسُرْعُوْفَةٍ حين يُحْصى جَمْعاً جَمْعاً،

بـالحسـابِ الفاتـنِ للـوحـدةِ،

كـأنّه استثنى نفْسَهُ حيـن عَدَّتْـهُ الأرضُ على أصـابعها التـي توقـظُ الفروقَ.

كأنّهُ،

أينَ؟

ما الهبوبُ القَيّومُ؟

إنَّها المسافةُ تأتيهِ مُخْتَبِلَةً لِتَتَقَوَّضَ في جَمَالها.

1989/6/7 - 5/4

ما المكانُ الأسيرُ

حين تأخذُ في يدكَ الريحَ صوبَ مفاتيحها؟

ما الصّدى؟ ما الحكايةُ، ما نزْفُها؟

ما الأنينُ الذي يتهادى بسُلْطانهِ في هوى الحبْرِ؟ نَهْبٌ صغيرُ

يخبّىءُ للورد رائحةَ البُنّ في سَهَر قادَ هذي الحديقَهْ
إلى حيث يشكو الصباحُ
أنَّهُ لم ينمْ في يديكَ اللتين اغْتَلَى فيهما ذَهَبٌ لم يَنَمْ،
فأعَدْتَ الحديقهْ
إلى وَرْدها، وسرقتَ من العتبات الرقيقَهْ
شُعاعاً لهَ قَسَماتُ المكان، وأرَّخْتَ للتَّرَف
بالذي آسَرَتْكَ البراعمُ في ظنّها. أيُّ ظَنّ
سيُلقيْكَ في شُبُهات من السَّعَف
كي يرى من أعاليه أنَّكَ أشفقْتَ أن تنثرَ الريحُ أكبادَها في يديكْ
فآويتَها، والتجأتَ إليكْ؟
أيُّ ظَنّ سيأخذُ وسْعَكَ؟ برقٌ على زنبقٍ أو عَسَلْ
يتلَمَّسُ إنْشَادَهُ يُغيْرُ عليكْ
بشقيقاته يَتَهتَّكْنَ مثل القُبَلْ
فانتَهبْ ما تشاءُ. المكائدُ من آلقِ، والحريقُ الأمينُ
يُعيْرُكَ كُتَّانَهُ،
والهبوبُ الذي أنتَ فيهِ هبوبُ السّنونو.

1989 / 6 / 11 - 7

تَـدَابِـيـرُ عَائِلِيَّـة

عُضَّ الـمكانَ أيها الحنينُ، عُضَّ الـمكان.

وأنتَ، أيهـا الضوءُ، عُضَّ الهـواءَ الحالـمَ، الذي يرفـع «طوروسَ»
سفحاً سفْحاً إلى أنينه الجبليِّ.

عُضَّ أيها الدَّمُ حديدَكَ، ولْتَعُضَّ الحقيقةُ من ندمٍ على كَمالِها

فالـمكانُ، هنا، مكانٌ، وأنا ذاهبٌ إلى حريقي؛

ذاهبٌ لأَقول للسهول أكثرَ ممّا يقوله الطَّيَرانُ للأجنحة،

ولأَقولَ لـلأرض إنها مثلـي تَسْتَرِقُ السَّمْـع على الفـراغِ، هامسـةً:
«مساءَ الخيْرِ أيها الفجرُ».

ذاهبٌ لأُصمِـتَ أكثرَ من شُبهَـةٍ تُكَرِّرُ الشَّكـلَ آدمياً آدمياً، فَلَـوْعتي

مكانٌ، وحنيني حنينُ الوقتِ إلى أمومةِ الجماد. كـأني ـــ هكذا ـــ سأعيدُ على الحقيقـةِ سَرْدَ ظنونهـا، وأَحْفُنُ الشمالَ حَفْنـاً كأنّـه حِنْطةٌ لم ينشُـرْها الحرّاثُون في الأَثلامِ العميقةِ لـمحاريثِ اللّه.

فيا الجمادُ الـمُعَافَى؛

يـا الجمادُ السـاهـرُ على رحيلـي كُـنْ مؤاتيـاً، لأكـونَ متَّسِعاً أكثـر لريحِكَ الأبويَّةِ، وكُنْ يقظانَ كنومٍ يقظانَ، ياشفيعَ الغواية، حين تصرخ: «مساءَ الخيْرِ أيها الفجرُ»، كأنّما تُقَلِّـدُ الأَملَ الـمُوجِعَ، الذي يقَلّدُ الحياةَ بصوتِه الأُنثويّ .

كثيرٌ هذا الذي يُهْديني الـموتُ لأكون مُمْتَنّاً لأنيني .

كثيرٌ هذا، أيّها الجمادُ، لأقول الـذي يُفْتِنِنِي في الضجيج الـمُمَزَّق هنا، حيث تخرج الأبديةُ حافيةًإلى الشرفة بعينَيها الباكيتين .

ذاهبٌ إلى كلِّ شيءٍ .

ذاهبٌ إلى كلِّ شيء .

ذاهبٌ إلى غرقٍ آخرَ للسماء .

ذاهبٌ إلى الأَسواق ذاتِهَا، الـمنذورةِ لشمـالٍ لم ينْثُرْهُ الحرَّاثُون في الأَثـلام العميقةِ لــمحاريثِ اللّـه، خفيفًا أعمـقَ مـن شتـاء، وأضلَّ مـن الأُقحـوانِ، حيث عـواصفُ القمـاش في الأَروقـةِ؛ عواصـفُ الشّاي فـي

الأرْوقةِ؛ عـواصفُ بسيطةٌ فـي الأروقة تُجَلْجِلُ بطـاسَاتِها النحاسيةِ كبـاعَةِ «عِرْقِ السوسِ» البارد .

وأنا أتبع العتَّالِيْنَ من شاحنةٍ إلى شاحنةٍ،

ومن ظمأٍ إلى ظمأٍ،

ومن مقاديرَ إلى مقاديرَ،

خفيفًا كقضاءٍ يجتهدُ فـي اختيار النهاية، لأنّني سأتـرجمُ الظهيراتِ الأكْثرِ نَكْبَةً كما تُتَرْجمُ الدِّيكَةُ النهارَ؛

خفيفاً أتبـعُ العتّالِيْنَ إلى آخِـرِي ـ إلـيَّ ـ في الـرواق الـمُمَهَّدِ بالضَّلالِ النبيل للخُطى النبيلة؛

خفيفًا كأنّمـا أُوْحيْتُ إليَّ بالعَثَرَةِ التـي قدَّمَ الوقتُ بها جسـاراتِهِ إلى الخلودِ السكرانِ؛

إليَّ،

إليَّ

بـاللّهاثِ الـمُمَسَّدِ كفَـروٍ تحت خُطـى العتّـاليْـنَ، وهم يصعـدون بأكياسِ القمحِ إلى الـمشيئةِ؛

إليَّ،

فاحشاً كانقطاعِ الحقيقة عن ثَرْثَراتِهَا .

وأنا فـي اتّجاهي إلـى الشاحناتِ الكبيـرة، التي لم تَنْسَنـي، لا أَلَمُ

الحقولَ بـل أُذَرْذِرُ الحقولَ في الهواء، وتحـت إِبطيَ كيسي الذي سـأجمع فيه الـمذابحَ متأمِّلا فراشاتِ أعْمَارها.

فلا تنْتَظِرْني أيُّها الوقتُ،

لأنني مـزمعٌ أن أتنكَّـرَ فـي قناعِ الـدم ــ شبيـهِكَ، الذي يَـدِينُ للأسـاطير بفُكَـاهاتِـه، وأنْ أُقايـضَ النهارَ عظـاماً بعظـامٍ، حامـلاً مَيَادعَ العتّالينَ إليهم حين يفيقون من القيلـولة، في الظهيرات التي تمحو الظلالَ بمِمْحـاتِها الصلبـةِ، وأنا أرشـقُ الأعمارَ بحفنـةٍ من الشعيـر الـمُندلِقِ هنـا وهناك، حيث رُفِعَت ــ من قبلُ ــ أكياسٌ إلى الشاحِنَاتِ، وتُرِكَ التعبُ جَليلاً يسردُ على سنابلِه القويةِّ رخاءَ المَنْسِيِّيْنِ.

أأهمسُ: «أيها العتّالون ــ يا يقَيني في الشتاء الذي لا عملَ فيه ــ أيها العتالون؟»، أأهمسُ: «صباحَ التّعب، يا صباحَ التّعب؟»، أأهمسُ: «أيتها الشـاحنات، يا أخـواتي؟». مَهْلاً. كـم يتّكيء الحنينُ علـى سياج بيْتي متأفِّفاً من نسياني. كم يُذَكـرني الحنينُ بي فأنسى، لأنني هناك، في الشَّفقِ الأكْثـرِ طَحْناً بمغـاليقهِ؛ الأكْثـرِ سَهْواً وهـو يحصي الشعـوبَ على أصابعه الـمقطوعة.

وأنا مُمْتَثِـلٌ للنسيان، الـذي يوزّعُ الحـريقَ قَلمـاً قلماً، مُصْـغٍ إلى الحبرِ الساهرِ بثيرانٍ من الماءِ على سهوله الـمنسيةِ، حيث ترفع السنابلُ، مثلي، ميْـدَعَةَ الأرض إلى العتّـالينَ؛ حيثُ أرتفـعُ إليَّ بنبضٍ مـن صخبِ

الحصّاداتِ الآلية، وهي تَذْرُفُ القشَّ على الجَمالِ الـمدحور؛
إليَّ،
بجبلٍ يدفع الجهاتِ من حوله، بيديه الـمائِسَتيْنِ،
موسِّعاً للوحشيِّ كي يتَّخذ الوحشيُّ زينَتَهُ الأليفَة.

أأهمسُ: «أيها العتّالون»؟. هو التَّعبُ يهمسُ كلماتِهِ الـمهجورةَ كي يوقظني في الألَـقِ الـمُمْسِكِ بالحياة، إذ تتسوَّقُ الحياة فـي ممرَّاتِ الريح الكبيرة، كامرأةٍ فطمتْ وليدَها، ضاحكةً للعطّارينَ؛ ضاحكةً للنهاية التي تتعثَّرُ بسِلاَل الزّبيب؛ ضاااحكـةً للضياءِ الجزَّار يكسرُ الأرضَ، بساطوره، ضِلْعاً ضلْعاً.

يالَذُعرِ التراب:
كلُّ مشهدٍ يقطرُ العَرَقُ من صدغيه:
كـلُّ فجاءةٍ تتهـدَّلُ في القيلـولةِ التـي يرفعهـا العتّالـون إلى ظهيـرةِ الحلم.

وأنـا أهمسُ: «أيتُهـا الشـاحناتُ. . يـاأخَواتـي»، راكضـاً بالحقيقـة؛ بالـمكان الـمُنْتَصِرِ فـي خساراته؛ بي إلى أعضائيَ الـمُشْرفةِ من الـموتِ على عويلها.

وللقطار الـوحيد أهمـس، أيضا: «ياأخـي، أيها القطـارُ الوحيـدُ في الشمال»، حيـث يتسرّبُ الشَّعيـرُ من شقـوق الـمقطوراتِ فيتلقَّفُـهُ الجوعُ

بيديهِ السوريتين، مُسْتَنِداً إلى الفضيحـةِ التي تتدلّى منها الحروبُ كعُنْقُوْلِ الموز.

ما همَّ: هُمُ العتّالون يرفعون الجوعَ إلى الشاحِنَات، بخطىً تتسلَّقُها السلالمُ، و يقطفُونَ الحروبَ من شجرات التوت.

هي الحروبُ تتسلَّقُ الشاحناتِ هاربةً بالأنينِ السُّوريِّ إلى العتّالين، ليصعدوا أقوياءَ إلى الحروب القويّةِ.

وأنا و الشّمال عاكفانِ على آجُرّنا الـدّامي بصباحاتٍ كأزاميلَ رقيقةٍ، ننقشُ بها ما ينقشُهُ العاديُّونَ على آجُرِّهم الدّامي.

شاحناتٌ فـي كلِّ مكان: هذا مـا أرويهِ للحكايةِ التـي تُروَى بتعبٍ يُرْوَى.

شاحناتٌ في كلِّ مكانٍ،
ككثافاتٍ تتألَّقُ في ضجيجها؛
كمديحِ الشّكلِ لنفسه؛
كاغتصابٍ يمهِّدُ للظِّلِّ أن يطيحَ بالجهاتِ.
شاحناتٌ كقلْبي، في شمالٍ كقلْبي،
وأنا أتواطَأُ مع الريحِ إذْ تعلنُ السهولُ شِقَاقَها،
وأتقرَّى بيـديَّ الـمعرفةَ، تلكَ، النشْوَى بـالذي يحلجُ السنيـنَ بين

يديها، وهـي تنظرُ الـمقاديرَ تدخـلُ بملاعقها التي ستَغْـرفُ بها الـمقاديرَ كالحساء.

ثَمَّ. وماذا فـي الحطـام الأنيـق ــ ثَـمَّ ــ إلاّ منـازلُ هـاربةٌ تتعثّر بالقتلى؟ و السكونُ الضّاري هو السكونُ الضّاري: قطارٌ من الـمسافةِ إلى الوقتِ، بمقطـوراتٍ تسرقُ الأقاليمَ و الظلالَ، وهي تختـرقُ الغدَ السوريَّ من الدم إلى الدم.

فلا تشهقـنَّ أمام الـوردِ أيها التوأمُ، كـأنّك ابتكـارُهُ الـمسروقُ، ولا تقُلْ للنهار فكرتَكَ التي تُعيدُكَ، شعاعاً بعد آخر، إِلَى بلاغةِ المساء،

وابقَ ــ كما أنتَ ــ وحيداً، في الفتـنةِ التي تجعلُ الليلَ خلودَكَ الزائلَ؛

في الفتنةِ التي ترفعُ مِعْطفَكَ الـمُمَزَّقَ إلى منكبيك كلَّما ابْترَدْتَ في الحريق.

واتْبَعِ الشاحناتِ ذاتها إلى كلِّ مكانٍ،

إليكَ؛

إلى الشّقاء الأخضرِ،

الذي يرسمُهُ قَلَمٌ أخضرُ مسروقٌ من فكاهةِ العنب،

حاملاً تينَكَ البهلوانَ؛ عِنَبَكَ البهلوانَ؛ قَمْحَكَ الـمُمْعِنَ في تفسيرِهِ الذّهبيِّ، كـأنّمـا تمهّدُ الحقـولُ لكَ بـإنشـاءٍ يُكْتَبُ فتلبسُ لهـا الريـحَ، ويؤوّلُكَ الليلُ تأويلَهُ النورانيَّ فيُغمى على النهارِ بين يديك.

أَتَطَأُ، بعد هذا، قَدَمَ النهارِ في رجوعك من أَلَقِ الليل، الذي يبهرُ عينيك؟ أَتَطَأُ النهارَ ــ شريكَكَ النائمَ على الرصيف الذي يعبره العتّالون من الشمال إلى الشمال؟ حَيِّهِ، أنتَ؛ حَيِّ الشَّررَ القابضَ على ذكراكَ بيدين من ظلامٍ وضَّاءٍ، وافتحْ للشهواتِ أن تتشمَّمَ، كالهِرَرَةِ، إبطَيّ المساءِ وأضلاعَهُ الرطبةَ، فأنت تستعيد الشمالَ حفنةً حفنةً حين تقيسُ الأرضَ بشهواتِكَ، وتقيسُ الهواء بالقُبَلِ، عريقاً كفجرٍ،

عريقاً كماءٍ،

كفكرةٍ،

كنهْبٍ،

كفراغٍ،

كطَلْقَةٍ تُرْدِي؛

لأنك تُصغي إلى الشاحناتِ الأنيسةِ متهاديةً إلى الصيف الذي ينام على وسادتك، مُذْ تعرَّفتِ اليقظةُ عليكَ في حُلْمها.

واتبعني فراشةً فراشةً، كضجرٍ حالمٍ؛ زاهداً، فأجْرُكَ المياهُ أجْرُكَ المياهُ.

واستَعِنْ بالمصادفةِ المحبوكةِ من القُنَّبِ، فالغبارُ ــ شقيقُنا ــ لا يتكتَّمُ على الكنوزِ التي تحاصِرُ الموتَ ــ ولا يتكتَّمُ الألَمُ على الشمالِ الذي يجرُّهُ القطار من حنينٍ إلى حنينٍ، كأنَّ مَجْداً مّا ينقرُ بأنامله على المنضدةِ في سوقِ العتّالِيْنَ، وهو مستسلمٌ للقرنفلِ يلقي عليهِ

نُعاساً كالتحيَّةِ.

ولْيتّبعني الشمالُ إلى الذي لا يُخيفُ؛

إليَّ؛

إلى القديم الذي يتفكَّرُ في نسيانهِ ليبْتَكِرَنا هاذيَيْن.

ولينتشرْ في حقولٍ تليقُ بشمالٍ مثلـه، لأتْبَعَ الهواءَ الشّغُوفَ بتفصيل قلبي على مقاسِهِ؛ لأتبعهُ، بدوْري، إلى الذي لا يُخيفُ؛

إليَّ؛

إلى المديح الذي يُمْلَى بأنينٍ كثير.

ولتكُنْ معي هذه التي أحفرُ عميقاً تحتَ قلبها؛

عميقاً، إلى حيـثُ اليقين ـــ صـاعداً ـــ يـرتِّقُ الفراغَ؛ نازلاً يـرتِّقُ الفراغَ؛

هذه التي تتقدَّم خائضةً في الحبر كضوءٍ سكران،

وأنـا أدلُّها علـى اللَّهبِ العَطّـارِ لنتسوَّقَ الـرعدَ الـذي يُحيِـــي، و الـمساءَ الذي يُحْيِـــي،

نازفيْنِ كألَقٍ نازفٍ؛

هكذا،

كأننا نجتهـدُ أن تكون الشّقائقُ حوارَنـا الـمُشْتَعِلَ في احتكامنـا إلى السهولِ، وهي تـرفع سراجَها إلـى الكَمال الأعمى الذي يتسلّـى بِنَرْدٍ من الضوءِ في وحدتهِ.

كأننـا، باعتـرافٍ واحدٍ، نعيـدُ على الـرَّماد الـــمُشَرِّعِ آخرَ هـرطقةٍ

للجَمْر.

يا لَلْجمْرِ الـمتبرّمِ من قَلَق شراراتِهِ؛
يا لَلْقلقِ الذي يستبدُّ بسَتَائِرِ البيـتِ، ويهيِّىء الصباحَ كإفْطارٍ، حين الـمكانُ يُنَقِّبُ عن حضورِهِ بمعاولَ نورانيَّةٍ؛
يا لانْشغالي وأنا أوسِّطُ الشمالَ في شِجَارِ الجهاتِ:
أمَا مِنْ لوعةٍ أخرى؟
أمَا مِنْ كمالٍ آخر في العناقِ الـذي يضربُ ضَرْبَةَ العَضَلِ الخالدَةَ، متهكِّما ــ كنبوءةٍ ــ مِنَ الرُّوح؟

كلُّها روحٌ.
ضرباتيَ هذهِ،
وأنا أنظرُ الشـاحناتِ تعبرُ ــ كمـا أعبرُ ــ قـوسَ الجمالِ الـمرفوعَ على حـديدٍ، و العتّالـون يُلْقونَ ـــ من فـوق عوارضها الحـديدِ ـــ تحيـَّةَ الأَقدارِ على الفراغ.

كلُّها روحٌ:
هذه الـممرَّات التي يعبرها القلقُ العدَّاءُ حاملاً ظلالَ الأكَاسْيَا على كتفيه، كـأنما يـذكِّرنـي بي، وأنـا جالـسٌ في كَميْـنِ الفروقِ التـي تُعذِّبُ

الحقيقةَ.

فاشهقْ طويلاً أمام الورْدِ أيها التوأمُ، كأنَّ الوردَ نُعاسُكَ،
وقُلْ للنهار فكرتَكَ ليُحْصي المساءُ بِكَ شعاعاتٍ تائهةً في فكرتِهِ،
لأنني مؤاتِ الآن،
وخطاطيفي الـمُلْتَمِعَةُ في الغبار هي خطاطيفُ الغبار يرفعُ بها الأفقَ إلى يقيني،
لأنني أهمِسُ، مُبْتسِماً للنهاية الـمُحْضَرَةِ كَعِجْلٍ من خطمها:
الحمدُ للمُشْكِلِ؛
الحمدُ للموتِ الذي يودِّعني كي يَكْتَمِلَ في وحدتِهِ؛
الحمدُ لِمَا لا يدومُ.

أَأُحيِّيْ ما يمضي على جَسَارَةِ أن يَمْضي،
وأُحيِّيْ ما يبقى على جَسَارةِ بقائهِ؟.
أَأُمْهِلُ الحياةَ كي تُعيد إلى حروبها غموضَها الـمسروقَ؟:
إنّه البهاءُ يُسَرِّحُ الأرْضَ فتتوضَّحُ في غبار شاحناتِـها.
وأنَا أُخْلي الـمكانَ مِنّي،
وأُخْلِـي العَبَـثَ، الـمفتوحَ كَشُـرْفةٍ، مـن القهقهـاتِ التـي نَسِيَهـا البَنَّاؤون،
مُنسَـلاً ــ كمكـائدَ عـذبةٍ ـــ إلـى حيث الأرواحُ تقلّـدُ الأحْيـاءَ بفكاهاتها، وهي تنتظرُ مثلي ــ على الجسْرِ هناك ــ شاحناتٍ أكثر صَخَباً

بأبواقها الكبيرة.

وبأبواقٍ كبيـرةٍ أوقظُ السماءَ النائمـةَ في سكينةِ تَعَبي، لِيَكـوْنَ لَهْوٌ؛ لِتَكُوْنَ العَجَلَةُ، فالهادئون لا يعثرون على ألَقٍ، والحاذقونَ لا يعثرون.

كلُّها صيْحةٌ، وأنا أُخْلِي اليقين منّي فـرْسخاً فرسخاً، عائداً بِمِيْدَعَةِ الريح إلـى العتّاليْنَ يفتُونَ الشمالَ كـالخُبْزِ في حساء العـدس، لأنجوَ من الـموتِ الذي لا يُميْـتُ، بجَسَـدٍ كالـمذاري ينثرُ الحقيقـةَ في الـمَهَبِّ الأشَدِّ لكَمَالِنا؛

كأني أسيرُ في فتنةٍ تتوسَّلُني من حولها الأرضُ أن أستعيدَ الأرضَ؛

كأني فـي الـمَهبِّ الأشدِّ الذي لا أستعيدُ فيه شيئـاً، ولا يستعيدُني فيه شيءٌ:

لأنَّ الضـوءَ الذي يمـزِّقُ العضَـلَ، في هـديـرِه، يمزّقُ الـمجازاتِ الشفيفةَ، فأنْحَنِي عليَّ

عَميـ

يـــ

يقاً

حيث الفراغُ يعضُّ على ذَهَبِهِ،

ويتقلَّبُ الغامضُ في سريري حتى آخرِ الـموت.

يالَلموْتِ، عميـ

ـيـ

ـيـقاً ينحني عليَّ،
ليستعيدَ القناعَ الذي أعَارَني؛
ليستعيدَ مراياهُ،
وسبائكَهُ الصَّلبةَ،
وفوانيسَهُ التي يهتدي بها إلى ممرَّاتِهِ؛
ليستعيـ

ـيـ

ـيـدني مُعَافىً كالشَّكْلِ.
وأنا أستعيدُ نَفْسي، أيضاً، في المُشْكِلِ الذي يُقْلِقُ الموتَ،
وأستعيـدُ الـموتَ مُعَـافىً، لأنحنـي عليـه باسطـاً لليقينِ الـــمذعورِ
سَكِينةَ الـمديح الذي يصعدُ
عميـ

ـيـ

ـيـ

ـيـقاً من الأنقاضِ،
حيث يرفع العتَّالونَ بخطاطيفِهِمْ ممالِكَ الأبديةِ إلى الشاحناتِ،
صاعدينَ السَّلاَلِمَ العريقةَ ذاتَها،
نازلِيْنَ السلالمَ العريقةَ ذاتَها،
باللُّهاثِ الذي يتمزَّقُ فيه ابتكارُ اللهِ، ويلْتحِمُ ابتكارُ اللّه.

ولربمّـا همستُ: إنهـا خُطواتِـي الواسعـةُ التي يُعيننـي بها الــموتُ
لأخطوَ إلى الحياةِ بارداً كروحٍ،
دافئاً كجسدٍ في ملهاتِه.
لربّما وَعْدٌ..
لربَّما شاحناتٌ شفيفةٌ تقود الشمالَ إليَّ على عجلاتٍ شفيفةٍ،
لربّما العتّالـون، أولئك، الذين من عَرَق وأُنْـسٍ، يعبرون قلبي إلى
سَهَرِ الحنيـنِ عليهم، حين يجتهـدُ قلبي اجْتهـاد الظّلّ، ويعظُ كمـا يعظُ
الـماء،
وأنـا أستعيدُ الــموتَ فيُسْتعادُ خجُـولاً، كأنَّمـا استَنْفدَ الــمرافعاتِ
القويةَّ في تَهَتُكِهِ، واستعارني كحبرٍ ليعْتِرِفَ بخسارتِهِ.
يالَنِعمةِ الخساراتِ أن تدوِّنَ ما سيدوم.
يالَنِعمةِ الخسارات أن تدوِّنَ ما لن يدوم.

والغد، الذي يُسْتَعادُ، غَدٌ على أحابيله:
رقيقٌ يَسْتنفِـدُ الـموتَ بحبـرٍ مُسْتَنْفَدٍ، فـي الـمُتَّسعِ الـذي لِلُّهاثِ،
حيـث الجِدالُ الخفيـضُ كصـوتِ العاثـرِ ينفخُ بفـمٍ رقيـقٍ على السطـور
المتقاربةِ للحياةِ، في الورقةِ ذاتها، الـمُسَطَّرَةِ على عواهنها؛
وأنا، علـى عواهني، أُسَطِّرُ الغيبَ في الـورقةِ التي تمتحنُنـي حِبْراً
حِبْراً، حتى أسْبق نَفْسي إلى الحنينِ، مُعافًى كدويٍّ يقطفُ الجُسور.

لكنَّ بيني و بين الحِبْـر شاحناتٌ توزِّع الطفولةَ على أبـواقها القويّة، فأسمعُ الشمالَ يَنْثُرُ الجهاتِ على حقوله، و ينتعِلُ الفجرَ راكضاً إلى هَرْج الليل.

يالَلْفجرِ الذي يُهدِّىءُ الليلُ من رَوْعِهِ،
وتُعَرِّي الحقولُ أثداءَهَ التي تُرْضعُ الضياءَ الـمُتَهَتِّكَ كالحُمَّى!
يالَلْحِبرِ ينزفُ الـمصائرَ من زُرْقَةِ الحبرِ وسطوره،
يا لابْتكارِ الشمالِ الذي يعيدُ الأرضَ إلى فِتْنَتِها الذّهبيّة:
شاحناتٍ،
ومواسمَ،
وخطاطيفَ حديداً،
وقيَّافينَ يتخفَّى منهمُ الـموتُ في قناعِ الـمياه.

حمّى مياهِ قلبي،
وأنا أغسلُ النِّعمةَ التي تغتسلُ في النّعمةِ،
مُتْرَفاً كعذابٍ،
كشقائِقَ تتطاحَنُ،
كَعَدَمِ ملاّحٍ،
كهاويةٍ من شِبَاكِ ذَهَبٍ تلتقطُ الأبدَ إذْ يتهاوى.

فـلا يَجْفَلَنَّ الشمـالُ أن أستعيدَهُ، هكـذا، قَلِقاً كـالتَّرَفِ، مُتَّصـلاً كعويلٍ يتلقَّفُ الطحينَ النُّورانيَّ من رَحَى اللّه،

لأنني أتلقَّفُ نَفْسِي هكـذا، قَلِقَـةً كالتَّـرَفِ، جـذْلَـى بحماقـاتهـا النُّورانيَّة.

وهي هكذا ـ مُذْ عرفتُها ـ نَفْسِـيَ؛ هكذا ـ مذْ عرفتُهُ ـ الشمالُ: أَرِقانِ نسهـرُ على الليلِ إذْ ينام مُعَـافىً كَشَكْلٍ، ونُحصي لليقيـنِ جَهَالاتِ اليقين.

أكثيرٌ هذا لنكونَ مُمْتَنَّـيْنِ للموتِ؟

شمالٌ، وقلبٌ كشمالٍ، حين المكانُ ـ كبرائنَ من تَرَفٍ شاحبٍ ـ ينهشُ الفراغَ الحيَّ كبِداً كبِداً؛

شماااالٌ

وأنا عابرٌ إلى الـمُمَزَّقِ بجهاتٍ مُمَزَّقَةٍ،

ليتأمَّلَ العَدَمُ مفاتيحهُ، مفتوناً، بعينيه الـمُؤَرَّقتيْنِ.

شماااالٌ

وأنا أَحْفُنُ القلقَ من كمالِ أعضائي المستقِرَّةِ في شهواتِها، كأنّي ـ ببزوغٍ العاديِّ على ذهوليَ ـ أنيرُ اللُّهاثَ الذي تُبصر الأرضُ فيه محاريثَ اللّه، مُلْتَفِتاً إليكِ، أنتِ التي تتقدَّمينَ خائضةً في الفجرِ كشُرودِ العاشقِ، هامسةً ـ بأريجكِ الهامسِ ـ أن يُخَفِّفَ الوردُ من ثرثراتـهِ في الحديقة، هناك، حيث يُصغي قلبيَ اللَّيليُّ إلى اعتـذارِ الفَجْرِ عن اللَّيليِّ من هفوات الفَجْر.

أَتَكيدُ النّعمةُ لي، بعد هذا،
أَأَكيدُ للنّعمةِ؟

قيَّافُ غَيْبٍ أنا،
أدلُّ الهباءَ على خطواتي وأُواسي الصلصالَ،
ماجناً كَكَدْحِ الوردِ، يسرقُ بشرودهِ المساءاتِ؛
ماجناً،
يرمي الشمالَ كما يُرْمى نَرْدٌ،
ليستردَّ الجهاتِ في خساراتهِ.

نيقوسيا، 1990

فهرس

إصدارات
دار توبقال للنشر
توزع في
البلاد العربية
وأوروبا

مطبعة فضالة - المحمدية (المغرب)

لَأَنْكُثَنَّ بوعدي إذاً،

فالشفاهُ التـي تردّد الكمالَ الصّاخبَ تردّدُ الـموتَ، والـموفَدُون إلى هذا الليلِ ليبْنُوا أدراجَهُ اللولبيَّةَ يعثرونَ الرخامَ الذي حمَلوه.

أما الـمشهدُ الـمُقَامُ على أنقاضِ حالِهِ فهو على حالِهِ،

والحيلةُ على حالِها،

والـموتُ، وَحْدَهُ، الأكثرُ وِحْدَةً بين الأَسْرَى.

لكنْ، ما الذي يفعلُهُ الـموتُ هنا؟

ما الذي يفعلُهُ الـموتُ السكرانُ، ذو الدُّوارِ الأشـدِّ، وهو يرمي بثيابِهِ إلى الأرواح؟

مَا الـذي يفعله الـموتُ، الـمُسَطِّرُ بـأقلامـهِ على الفكـاهةِ النـائمةِ كورقةٍ مديدةٍ بين شِعْرٍ نائمٍ وأنينٍ يقظان؟

مَـا الذي يفعلـه الـموتُ، شـريكي، فـي هذه البُـرْهَةِ التـي تَتأَصَّـل بجـذورٍ كجـذُورِ التيـنِ، وبـراعـمَ من شعـاعٍ ينثرُ الـمغيبَ علـى أثـداءِ شقيقاتهِ؟

مَا الذي يفعلهُ الـموتُ، القادمُ بي إلى هَذْرِهْ؟

مَـا الذي يفعلـه الـموتُ الـذي أضجَرَ الشهـودَ بِهَرْجِـهِ، وخرجَ مـع الخارجين من الباب ذاتِه الذي يُفْضي إِلَى الحياة؟

مَا الـذي أفعلُه بالـموتِ، أسيري، وأنـا الحائرُ فـي تدبيـرِ زنازيـنَ مضيئةٍ تليق بأَسْرايَ وبِـي؟